AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

حب و حرب

843
R74pH

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر

رومان رولان

حب وحرب

مع
مقدمة بقلم
ستيفان زفايج

سلسلة عيون الأدب العالمي
١٣

ترجمة
فؤاد ايوب

جميع حقوق الطبع والنشر والاقتباس محفوظة
لدار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر
دمشق ـ سورية
١٩٥٣

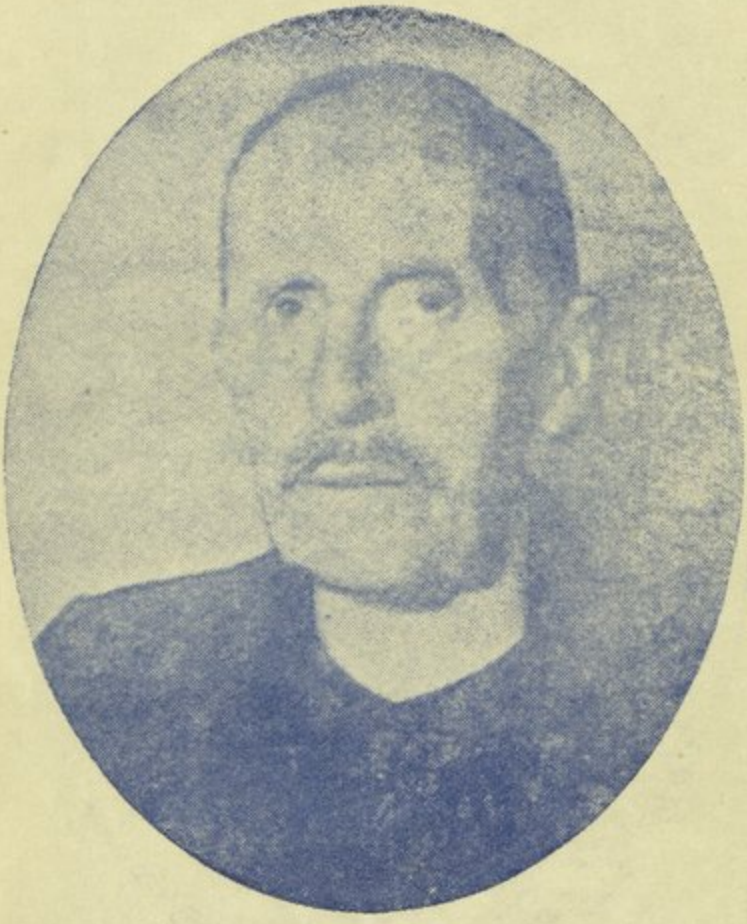

رومان رولان

عنوان القصة الأصلي بالفرنسية

Pierre et Luce
par Roman Rolland

المقدمة

... والصدفة المحضة هي التي قادتني إلى اكتشاف رومان رولان في الوقت المناسب ، إذ دعتني مرة فتاة روسية تشتغل في النحت في فلورنسا إلى تناول الشاي على مائدتها ، وهدفها من ذلك أن تطلعني على أعمالها ، وأن تحاول - في الوقت ذاته - رسم مسودّة صورة لي ... وطرقت باب دارها في الوقت المحدّد في الساعة الرابعة ، وقد غاب عن بالي أنها روسية ، وأنها بالتالي لاتعير الزمان ودقة المواعيد أدنى اهتمام أو عناية على الاطلاق ، فأدخلتني عجوز مغرقة في السن كثيراً ، بلغني فيما بعد أنها كانت مرضعة لوالدة مضيفتي ، إلى معمل الفنانة حيث كان العنصر

الأكثر فتنة وتفوقاً هو الفوضى الشاملة ، ورجتني أن أنتظر هناك ... ولم أجد في هذا المشغل إلا أربعة نحوت صغيرة لا أكثر ولا أقل ، تفحصتها في أقل من دقيقتين ؛ وحتى لا أضيع الوقت سدى ، تناولت أول كتاب وقعت عليه يدي ، أو بالأحرى - كي أكون أكثر دقة - تناولت سلسلة من الكراريس الصغيرة السمراء اللون الرابضة هنا وهناك في أرجاء الغرفة ، والتي تحمل اسم « دفاتر كل أسبوعين » ، وهو اسم تذكرت أني سمعت به من قبل في باريس . ولكن من يستطع أن يتتبع كل هذه المجلات الصغيرة التي لا يحصى لها عدد ، والتي تبرز في كل مكان في أنحاء البلاد ، مثل أزهار مثالية قصيرة الحياة ، ثم تذوب وتتلاشى . وأخذت أتصفح كتاب رومان رولان ، « الفجر » ، ثم شرعت أقرأ فيه ، والدهشة والاهتمام يستوليان علي أكثر فأكثر كلما أمعنت في القراءة . من هو هذا الفرنسي الذي يعرف ألمانيا هذه المعرفة الواسعة الدقيقة ؟ وسرعان ما أصبحت شاكراً لصديقتي الروسية إهمالها دقة المواعيد ، حتى إذا جاءت أخيراً كان السؤال الذي بادرتها به : « من هو رومان رولان هذا ؟ » . ولكنها لم تستطع أن تفيدني كثيراً ، بحيث لم أعرف الرجل إلا بعد أن

حصلت على أجزاء مؤلفه التالية (وكانت الأخيرة منها ما برحت في حالة الحمل لم تخرج إلى النور بعد) .

لقد اكتشفت أخيراً العمل الأدبي الذي لايخدم أمة أوروبية وحيدة ، بل جميع الأمم على حدّ سواء ، ويخدم قضية الأخوة والصداقة بينها .. اكتشفت الرجل ، الكاتب الذي باقي في الميدان بسائر القوى الأخلاقية ، والمعرفة التي تنيرها شعلة المحبة والارادة المخلصة في المحبة ، وعدالة مجربة ومنقّاة ، وإيماناً لاهباً برسالة الفن التي تقوم في جمع شمل البشر وتوحيدهم . وبينا كنا نحن نتبعثر في تظاهرات هزيلة ، انهمك هو في العمل ، في سكون وفي صبر ، مبتغياً أن يعرّف الشعوب المختلفة ببعضها البعض في الصفات التي تجعلها ، كلاً على انفراد ، أكثر جدارة بالمحبة والاحترام . تلكم كانت الرواية الأولى ، الأوروبية عن وعي وإدراك ، التي تكتمل هنا ؛ ذلكم كان النداء الأول الفعال إلى الأخوّة ، النداء الأكثر فعالية من أغاني فرهارن لأنه يبلغ جماهير أكثر عدداً واتساعاً ، والأعمق أثراً من سائر النداءات والاحتجاجات التي كانت ترتفع ـ أحياناً ـ من هنا وهناك . ههنا نضج في السكون ما كنا جميعاً نرجوه وننتظره دون دراية منا .

وكان أول ما عنيت به في باريس هو السؤال عنه، متذكراً كلمات جوته: «لقد تعلّم، وفي استطاعته أن يثقفنا». واستفهمت عنه لدى أصدقائي، فخيّل إلى فرهارن أنه يتذكر مأساة بعنوان «الذئاب» مثلت على «مسرح الشعب» الذي أسسه الاشتراكيون. أما بازالجيت فقد بلغه أن رولان ضليع في الموسيقى، وأنه نشر كتاباً صغيراً عن بيتهوفن. ووجدت في فهارس المكتبة الوطنية عشرة من المؤلفات عن الموسيقى القديمة والحديثة، وسبع أو ثماني قطع مسرحية ظهرت جميعاً عند ناشرين صغار أو في «دفاتر كل أسبوعين». وأخيراً أهديته أحد كتبي، كي أقيم صلة وصل بيني وبينه، فما أسرع ما تلقيت منه رسالة يدعوني فيها إلى زيارته... وهكذا ابتدأت صداقة جديدة كانت عظيمة الأثر، إلى جانب صداقتي مع فرهارن وفرويد، في تعيين اتجاه حياتي في ساعاتها الحاسمة...

* * *

إن في الأيام البارزة من وجودنا قوة نيّرة تفوق ما في الأيام العادية منه. وهكذا فاني ما برحت أذكر بكل وضوح

وجلاء تلك الزيارة الأولى ، إذ تسلقت خمس سلالم ملتفة كثيرة الضيق في بيت عادي المظهر للغاية ، غير بعيد عن شارع مونبارناس . ولم أكد أبلغ الباب حتى دهشت سلفاً لميزة السكون المسيطر هناك . كنت لا تكاد تسمع همس الشارع الكبير وهو يعلو قليلاً جداً عن صدى الريح النافخة في أشجار حديقة أحد الأديرة ، تحت نوافذ الدار . وفتح رولان الباب لي ، وقادني الى غرفته المغمورة بالكتب من الأرض حتى السقف . كنت أرى للمرة الأولى تينك العينين الزرقاوين الفائقتي اللمعان . أكثر عينين إنسانيتين عرفتهما صفاء وحناناً ، هاتين العينين اللتين تستمدان ، في الأحاديث ، لونهما ونارهما من أكثر المواطف ألفة وصدقاً ، وتظلمان في الحزن ، وتعمقان في التفكير ، وتلقيان الشرر في الهيجان ، هاتين الحدقتين الوحيدتين ، الرابضتين بين حوافي الأجفان المتعبة قليلاً ، والمحتقنة بعض الاحتقان من جراء القراءة والسهر الطويل ، اللتين تستطيعان أن تشرقا ، في روعة وبهاء ، بنور ينتقل إليك ويملؤك سعادة وهناء معاً . ورحت أرقب بنيته في خوف قليل . كانت قامته مديدة رشيقة ، تنحني بعض الانحناء إذا مشى ، فكأن ساعات العمل الطويلة العديدة التي يقضيها إلى مكتبه قد لوت عنقه قليلاً .

كان مظهره العام، بسيمائه البارزة الشديدة الشحوب، يدلُّ على المرض. وكان يتكلم بصوت مخفوض جداً، كما كان يعنى، من جهة أخرى، بجسده كل العناية. ولم يكن يخرج للنزهة قط، يأكل قليلاً، ولا يشرب أو يدخن مطلقاً، ويتجنب كل جهد حكمي... ولكنني اضطررت إلى الاعتراف فيما بعد، باعجاب كلي، بما يستطيع هذا الجسد النسكي أن يتحمل من أعباء عظيمة تفوق حدود التصور، وبما يتمتع به من قوة عظيمة على العمل الفكري، تختفي وراء ذلك الضعف الظاهري. كان يقضي ساعات طويلة إلى طاولته المحملة بالكتب والأوراق يكتب دون هوادة، أو يقرأ ساعات مديدة في سريره، دون أن يعطي جسده المتعب أكثر من ثلاث أو أربع ساعات نوم على الأكثر. وكانت الموسيقى التسلية الوحيدة التي يسمح لنفسه بها .. كان يعزف على البيان بصورة رائعة، يضرب على مفاتيحه بعذوبة يستحيل أن يطالها النسيان، وهو يمسح عليها بلطف فكأنه لا يريد انتزاع الأصوات عنوة منها، بل بالاقناع والتملق فقط. أبداً لم يعطني أي عازف ممتهن - ولقد أصغيت في أضيق الحلقات وأخصها إلى ماكس ويجر وبوزوني، وبرونو ولتر يتجلّون في مواهبهم - شعور المشاركة الصميمية مع

المعلمين المحبوبين ، مثلما فعل رولان .

وكانت معرفته تخجلك بسعتها وامتدادها . كان يملك ، هو الذي لا يعيش ، إن صح التعبير ، إلا بعينيه كقارىء ، ناصية الأدب والفلسفة والتاريخ ، ومشا كل سائر البلدان في كل الأزمان . وكان يعرف من الموسيقى سائر سلالمها ، كما كانت أكثر مؤلفات غالوبي وتيلمان نسياناً ، ومؤلفات أخرى عديدة وضعها موسيقيون من المرتبة السادسة أو السابعة ، مألوفة لديه . وبالاضافة إلى ذلك فقد كان يلقي بسهمه ، بروح ملتهبة ، في سائر حوادث الزمن الذي يعيش فيه ، فيعكس العالم في مرآة تلك الصومعة الرهبانية فكأنه في غرفة معتمة . ولقد تمتع ، بشعور إنساني عميق ، بصداقة وودّ أعظم رجال عصره ، فكان تلميذاً لرونان ، وضيفاً دائماً على بيت فاغنر ، وصديقاً حميماً لجوريس ، أما تولستوي فقد كتب إليه تلك الرسالة المشهورة التي يحق لها ، بكل فخار ، على اعتبارها شهادة إنسانية صادرة من أعماق القلب ، أن تحتل مكانها جنباً إلى جنب مع إنتاجه الأدبي الرائع . كنت ههنا أحسّ ـ وهذا كان يطلق فيّ دوماً شعوراً طاغياً من السعادة ـ حضور التفوّق الأخلاقي والانساني ، ووجود حرية داخلية عظمى

مجردة عن كل زهو أو عجرفة ، حرية طبيعية في نفس قوية .
ولقد عرفت فيه منذ النظرة الأولى ـ وكان الزمن مصداقاً لي فيما بعد ـ الرجل الذي سيكون ، في الساعة الحاسمة ، وجدان أوروبا بأسرها ... وتبادلنا الحديث في موضوع « جان كريستوف » ، فأوضح لي رولان كيف حاول في هذا المؤلف أن يقوم بأعباء واجب مثلث ، فيعبر عن امتنانه للموسيقى ، ويقول إيمانه بالوحدة الأوروبية ، ويوجه نداءه إلى وجدان الشعوب بوجوب فعل الجميع على حدٍ سواء ، كل في مكانه ، كل في بلده ، كل بلغته الخاصة .. لقد آن الأوان كي نتيقظ ، ونضاعف من يقظتنا أكثر فأكثر دوماً .. إن القوى التي تحثُّ على الحقد ، لهي ، بسبب طبيعتها الدنيئة بالذات ، أكثر حمية وأشد عدواناً من القوى الداعية إلى المصالحة .. وبالاضافة ، فان وراءها لمصالح مادية هي ، في حدّ ذاتها ، أكثر تجرداً عن الشكوك من مصالحنا . لقد كان من الواضح أن اللامعقول يفعل دون هوادة ، وأن النضال ضده أعظم أهمية من فننا بما لا يقاس . وأحسست أنه يتألم لهشاشة الأبنية الانسانية ، الأمر الذي يتضاعف إيلامه عند رجل نادى في مؤلفاته دوماً بخلود الفن . كان يقول لي : « إنه يستطيع أن يعزي كلاً على

انفراد ، ولكنه لا يستطيع شيئاً ضد الواقع » .

كنا في عام ١٩١٣ ، وذلك أول حديث أقنعني بأن من واجبنا ألا نعدم التبصر ، وألا نكون عاطلين غير فاعلين ، بل ينبغي علينا بالضرورة أن نقاوم كل حرب أوروبية ما برحت ممكنة الوقوع . إن شيئاً لم يهب رولان في اللحظة الحاسمة ذلك التفوّق الأخلاقي العظيم إلا تثبيته نفسه سلفاً فيما يسعى إليه ، رغم ما في ذلك من إبلام وعناء .. لربما أننا فعلنا شيئاً ما في بيئاتنا ، فقد ترجمت كثيراً ، وكسبت الانتباه للشعراء الموجودين عند جيراننا ، ورافقت في ١٩١٢ فرهارن في أنحاء ألمانيا بأسرها في جولة محاضرات أخذت طابع تظاهرة رمزية للأخوّة الفرنسية الألمانية . وفي هامبورج تعانق فرهارن ودهمل على رؤوس الأشهاد : إن أكبر غنّاء فرنسي وأعظم شاعر ألماني قد التقيا ! وكذلك كسبت رينهاردت إلى جانب مأساة فرهارن الأخيرة . أبداً لم يكن تعاوننا ، من كلا الجانبين ، أكثر وداً ووثوقاً وانطلاقاً . وفي كثير من ساعات الحماسة كنا نهدهد أنفسنا بالأوهام ، معتقدين أننا بيّنا للعالم الحقيقة التي ستنقذه . ولكن العالم لم يكن يهتم إلا قليلاً بمثل هذه المظاهرات الأدبية ، كان يسلك طريقه

الخاصة ، وكانت هي الطريق السيئة . كان في هيكل هذا العالم لست أدري أية اهتزازات كهربائية تطلقها بعض الاحتكاكات ، فتروح تنبثق منه شرارة في كل لحظة ـ مشكلة زايم ، الأزمة في ألبانيا ، أو مقابلة خرقاء سيئة المآل . كانت شرارة واحدة تنبثق في كل مرة ، ولكن كلاً من هذه الشرارات كانت تملك القدرة على إرسال النار في المتفجرات المتكدسة . وكنا نشعر، نحن في النمسا بصورة خاصة ، أننا في قلب منطقة الاضطراب والخطر . ففي عام ١٩١٠ بلغ الامبراطور فرنسوا جوزيف سنته الحادية والثمانين ، شيخاً ، أضحى منذ زمن طويل مجرد رمز ليس غير ، رمز لا تمكنه الحياة طويلاً بعد الآن . ولقد ساد في الرأي العام شعور صوفي بأن انحلال المملكة المجوز واقع بعد رحيله لا محالة ، وأنه ليس من وسيلة لتجنب ذلك الانحلال وتفاديه ، ما دامت بذور الخصام القومي تتأصل أكثر فأكثر في داخل المملكة ، بينما تتحفز في الخارج كل من إيطاليا ، وصربيا ، ورومانيا ، وألمانيا حتى درجة ما ، مستعدة لاقتسام الامبراطورية فيما بينها . ثم كانت حرب البلقان حيث جرّب كروب من جهة وشنيدر دي كروزو من جهة أخرى ، مدافعهما في

« المادة الانسانية » الرخيصة في نظر المعسكرين معاً ، كما فعل الألمانيون والايطاليون فيما بعد بطائراتهم خلال الحرب الاسبانية الأهلية . كانت تلك الحرب تجرفنا أكثر فأكثر في تيارها المتزايد العنف دوماً وفي كل لحظة كنا ننتفض كي نتنفس الصعداء من جديد :

« ذلك لن يكون هذه المرة أيضاً ، فلنترجّ أنه لن يحدث بعد الآن على الاطلاق » ...

ستيفان زفايج

من كتابه « عالم الأمس »

* *

حب و حرب

ربوة القصة

من مساء الاربعاء الثلاثين من كانون الثاني حتى يوم الجمعة العظيمة
التاسع والعشرين من اذار ١٩١٨

حب!...

السلام محبة الله

برد برکوس

١

تهاوى بيير في المترو وسط جمهور شرس الطباع محموم الحركة ، ووقف قرب المدخل يزحمه صف من الأجساد البشرية التي يقاسمها الهواء الثقيل المتداوَل بين الأفواه ، شاخصاً إلى القبب السود المزججة التي تنزلق عليها حدقات القطار البراقة في جريانه السريع ، ولكن دون أن يراها ... إن أخيلة مماثلة في القسوة ، وأضواء مكافئة في الايلام ، تغمر نفسه من كل حدبٍ وصوبٍ وتئيد عليه حتى درجة الارهاق ، فيحاول جهده ، وهو يكاد يختنق تحت نير ياقة معطفه المرتفعة ، وذراعاه ملتصقتان بجسده بشدة ، وشفتاه منطبقتان بعنف وإحكام ، والعرق يخضّل جبينه ويتجمد عليه من حين لآخر بنفحةٍ من الريح القارسة تجتاح القاطرة كلما فُتح الباب ، ألاّ

يرى وألا يتنفس ، ألا يفكر وألا يعيش ... إنّ يأساً مظلماً قاتلاً يفعم قلب هذا الفتى الذي يكاد أن يكون ، بالرغم من بلوغه الثمانية عشر ربيعاً ، طفلاً صغيراً غض الاهاب طريّ العود بعد . وإلى الأعلى منه ، فوق ظلمات هذه القبب السود ، فوق ثقب الفأر هذا حيث يذل الشيطان المعدني الممثلي يرقات بشرية ، كانت باريس ، وكان الثلج وليل كانون الثاني الأرز ، وكان كابوس الحياة والموت .. الحرب !

الحرب .. أعوام أربعة انقضت منذ استقرارها ما أكثر ما أثقلت فيها على فتوّته . لقد بغتته في إبّان تلك الأزمة الأخلاقية التي يكتشف المراهق فيها ، وهو مأخوذٌ بيقظة حواسّه وتفتحها ، قلق لانفلاتها الفجائي وانطلاقها ، ما تتمتع به الحياة الساقط فريسة سائغة بين أظافرها ، دون أن يكون هو نفسه قد طلب أن يعيش ، من قوىً حيوانية الطبيعة ، عمياء البصيرة ، ساحقة العنفوان . فاذا ما كان هذا المراهق ، مثل بيير ، رقيق الشمل ، طيب القلب ، ناحل الجسد ، طغى عليه بالضرورة شعور بالقرف والاشمئزاز ، شعور بنفور شديد لا يجرؤ على الاعتراف به للآخرين ، نفور من هذه الفظائع ، هذه الأرجاس والقذارات ، هذه

اللامعقولات التي ترتكبها الطبيعة الخصبة اللاهية ... هذه الخنزيرة الماخض التي تلتهم ثمرة بطنها . إنّ هناك قليلاً من روح همات في كل يافع بين السادسة عشرة والثامنة عشرة من سنيه ، فلا تسألوه مطلقاً أن يفهم الحرب ! (ذلك يصلح لكم أيها الرجال المنحجرون !) يكفيه عبئاً أنّ عليه أن يفهم الحياة ، وأن يصفح عنها ويغفر لها . إنه يدفن نفسه عادةً في الأحلام والفنون حتى يألف تجسّده ، وتكمل المضغة عبورها المؤلم من اليرقة حتى الحشرة المكتملة . ألا ما أشد حاجته إلى السلام والانطواء على الذات في هذه الأيام من نيسان المضطرب ، نيسان الحياة التي تنضج وتتفتح أكمامها ... ولكنهم يأتون إليه في عزلته العميقة وينتزعونه من الظلال التي لجأ إليها واحتمى بها ، ثم يلقون به ، طريّاً في جلدته الجديدة ، في الهواء الفجّ ، في الجنس البشري القاسي الذي ينبغي عليه ، دون أن يفهم ، أن يقترن به ، ودون أن يفهم أيضاً أن يراقب أفعاله الجنونية والبغضاء التي تتآكله .

كان بيير مدعواً مع أبناء جيله ، أطفال الثامنة عشرة ، إلى الخدمة . إن الوطن في حاجةٍ إلى لحمه بعد ستة شهور ، والحرب تطالب بحقوقها فيه ... إن لديه ستة شهور من الزمن ،

ستة شهور فقط ! أواه ! لو يستطيع المرء على الأقل ، حتى ذلك الحين ، أن يمتنع عن التفكير ! لو يستطيع أن يبقى في هذا السرداب المظلم ! ألاّ يشاهد بعد الآن النهار القاسي !

ويغطس في الظلّ ، والقاطرة تهرب به ، ويغمض عينيه .

وعندما فتحهما من جديد ... على بعد بضعة أقدام منه تنتصب فتاةٌ صعدت لتوّها ، يفصله عنها جسدان بشريان . ولم يرَ منها ، للوهلة الأولى ، سوى صورة جانبية دقيقة ترتسم تحت ظلّ القبعة العالية ، وخصلة شقراء من الشعر ضالة على الخد الناحل قليلاً ، وضوءاً مسلطاً على الوجنة الحلوة ، ثم الخط الناعم الذي يرسمه الأنف والشفة المرتفعة ، وأخيراً الفم المنفرج قليلاً ، الخافق بَعدُ من عجلة الطريق . ومن باب عينيه ، إلى قلبه دَخَلَتْ ، دخلت بكليتها .. ومن ثم أُرْتِجَ الباب . وسكنت ضوضاء الخارج وأصداؤه . إنه السكون والسلام ... إنها ههنا !

لم تكن تتطلع إليه ، بل لم تكن تعرف وجوده بعد . وكانت فيه ! إنه يمسك بصورتها ، خرساء ، رابضة بين ذراعيه ، ولا يجرؤ على التنفس خشية أن تلفحها أنفاسه ...

وحدث بعض البلبلة والهرج في المحطة التالية ، وراح الناس

يتهافتون ، وهم يصرخون ويزعقون ، على القاطرة التي تغص بهم وتعج .. ودُفِعَ بيير من مكانه ، تحمله الموجة البشرية العاتية ... فوق القبة ، في المدينة ، هناك عالياً ، كانت انفجارات صماء ... وانطلق القطار من جديد ... ولكن رجلاً مسلوب العقل ، يغطي وجهه بيديه ، اندفع في تلك اللحظة بالذات يهبط سلم المحطة ، ثم سقط يتدحرج على بلاطها البارد . واستطاع القوم أن يلمحوا الدماء السائلة من بين أصابعه ، ثم كان النفق من جديد ، والليل مرة أخرى ... وفي القاطرة ارتفعت صيحات رعب مذعورة : « لقد أتى الغوتيون ! »[1] . وفي هذا الانفعال المشترك الذي يذيب كل تلك الأجساد المتراكمة في جسد وحيد ، أمسكت يده باليد التي تلامسها . وإذ رفع عينيه ، وجدها هي .

ولم تتماص أبداً . كانت الأصابع المتشكشة قليلاً ترد بلطف على ضغط أصابعه المضطربة ، ثم استسلمت عذبة ، محرقة ، لاحراك بها . وبقيا هكذا ، في الظل الذي يحميهما ، ويداهما أشبه بعصفورين متعانقين في عش واحد . وكان دم قلبيهما يسيل ، في موجة وحيدة ، بحرارة الراحتين الدافئتين . ولم يتبادلا أية كلمة ،

---

(١) نسبة إلى غوتا ، وهي مدينة في ألمانيا .

ولم يأتيا بأقل نأمة .. كان نفسه يكاد أن يمس الخصلة الضالة على الخد، وطرف الأذن الصغيرة . ولم تنظر إليه ... وبعد محطتين حلّت نفسها منه، هو الذي لم يكن يمسكها ، وانزلقت بين الأجساد ، وذهبت دون أن تراه ...

وبعد أن اختفت فكّر في اللحاق بها ... ولكن الوقت قد فات ، فهذا القطار قد عبّد يعدو بأقصى سرعته وفي الموقف التالي صعد حتى سطح الأرض ، ولقي من جديد الهواء اللبلي ، واحتكاك ندف الثلج الخفي عن الأنظار ، والمدينة المذعورة ، المتسلية بذعرها ، المحلقة في علياء سمائها العصافير الحربية . ولكن عينيه عميتا عن كل شيء ، إلا تلك التي كانت فيه ... ورجع إلى البيت ممسكاً بيد المجهولة ..

٢

كان بيير أوبيه يقيم عند أهله قريباً من ساحة كلوني. وكان أبوه قاضياً، بينما التحق أخوه الذي يكبره بست سنوات بالجيش منذ بدء الحرب. تلك عائلة بورجوازية صالحة، فرنسية بكل معنى الكلمة، من أولئك الناس الشرفاء، المفعمين بعواطف الوداد والانسانية، الذين لم يجرؤوا يوماً على التفكير بعقولهم الخاصة، وأكبر الظن أيضاً أنهم لايدرون معنىً لذلك على الاطلاق. ومما لاريب فيه أن القاضي أوبيه، وهو رجل الأصالة والشرف الذي يضمر فائق التقدير والاحترام لواجبات وظيفته، ليرفض باستياء شديد، على أنه إهانة عظمى لا تغتفر، كلَّ ارتياب في إمكان صدور أحكامه تحت ضغط أية اعتبارات أخرى سوى

العدالة وصوت الضمير ... ولكن صوت ضميره لم يتكلم قط (والأفضل أن نقول لم يهمس ألبتة) ضدّ الحكومة. لقد ولد وجدانه موظفاً، فهو يفكر تبعاً للدولة المتحولة، لكن المعصومة في الوقت ذاته، فالسلطات القائمة ترتدي بالنسبة إليه ثياب حقيقة مقدسة لايطالها التدنيس. فلا عجب إذن إن كان يضمر، بمطلق الاخلاص، أعظم الاعجاب بتلك النفوس البرونزية المعدن، أعني بهم قضاة الماضي العظام والأحرار الذين لايعرف اللين سبيلاً إلى قلوبهم أبداً.. ولعله كان يعتقد، في سره، بانحداره من سلالتهم الرفيعة أيضاً. وبكلمة مختصرة، فقد كان مثالاً مصغّراً عن القاضي ميشيل دي لوسبيتال، بعد مرور قرن كامل عليه من العبودية الجمهورية.

أما السيدة أوبيه فكانت مسيحية طيبة، بمقدار ما كان زوجها جمهورياً صالحاً. ومثلما كان زوجها مخلصاً وشريفاً في جعله من نفسه أُلعوبةَ السلطة القائمة ضدّ كل حرية غير رسمية، كانت هي تمزج صلواتها، بكل طهارة قلب، بالصلوات المجرمة الدامية التي يضعها من أجل الحرب، في كل من البلاد الأوروبية، الكهنة الكاثوليون، أو القساوسة البروتستانتيون، والربانيون اليهود،

أو الخوارنة الأرثوذكسيون، وصحف تلك الأيام وأناسها الذين يجيدون التفكير. وكان كلا الأب والأم يعبدان ولديهما حقّ العبادة، ولا يكنّان لهما، كفرنسيين أصيلين، إلا المحبة العميقة الجوهرية، متأهبين دوماً لأن يضحيا بكل شيء في سبيلهما، ولأن يضحيا بهما، كما يفعل الآخرون أيضاً، دون تردد أو حذر. ولمن؟.. للإله المجهول! إن إبراهيم قد قاد، في كل الأزمان، فتاه إسحق إلى المحرقة، وما برح جنونه المجيد حتى الآن مثالاً تحتذيه الانسانية المسكينة.

كانت المحبة عظيمة في هذا البيت العائلي، مثلما هي الحال في أغلب الأحايين؛ أما الصداقة والألفة فمعدومتان تماماً. كيف يمكن للأفكار أن تنتقل بحريةٍ من شخصٍ إلى آخر، بينما كل إنسانٍ يتجنب النظر إلى أعماق فكره الخاص؟ ومهما تكن مشاعر المرء عظيمة متنوعة، فهو يدري ضرورة احتفاظه ببعض العقائد لنفسه وحدها من دون الآخرين. وإذا ألمّ به القلق وانتابه شعور الضيق، حتى فيما يتعلق بتلك العقائد التي تعرف، لرصانتها وفطنتها، كيف تبقى في الحدود المرسومة لها (تلك هي حال عقائد العالم الآخر بصورة عامة)، فما القول

إذن عندما ندّعي الامتزاج بالحياة ، وقيادتها بمجموعها ، كما تفعل عقائدنا المدنية الاجبارية ! هلمّ إذن وانسَ عقيدة الوطن ! إن الديانة الجديدة لتجرّنا إلى الوراء بالنسبة إلى العهد القديم ، فهي لاتكتفي بعبادة الشفتين وبعض الممارسات البريئة ، الصحية والسخيفة معاً ، كالاعتراف ، وصوم الجمعة ، وراحة الأحد ، هذه الممارسات التي طالما أرّقت حماسة « فلاسفتنا » أيام كان الشعب حراً ... تحت سلطة الملوك ، بل هي تريد كل شيء ، ولا ترضى بأقل منه أبداً . إنها تريد الانسان بكليّته ، جسده ودمه ، حياته وفكره ... دمه على الأخص . أبداً لم تتخم الألوهية ، منذ قطن الازتيكيون بلاد المكسيك ، مثلها اليوم . وإنه لمن الظلم العظيم أن نقول إن المؤمنين لم يتألموا من مثل هذه الحال ... لقد كانوا يتألمون ، ولكن يؤمنون . أواه ، ياأخوتي البشر المساكين الذين يؤلف العذاب نفسه بالنسبة إليكم برهاناً على الالهي !...

كان الزوجان أوبيه ، مثلهما في ذلك مثل باقي الناس ، يتألمان ، ومثل باقي الناس أيضاً يتعبّدان . ولكن ، أيمكن أن نطلب من المراهق أيضاً هذا الانكار للقلب والحواس والحسّ السليم ؟ لقد كان بيير بود أن يفهم على الأقل ماهية ذلك الشيء الذي يضطهده

ويثيد عليه . كم من سؤل يحرقه دون أن يستطيع الافصاح عنه ! ذلك أن الكلمة الأولى من سائر أسئلته ستكون : « ولكن ، إذا كنت لاأومن بذلك . ! » أفليس هذا لوحده تجديفاً لامراء فيه ؟ كلا ، إنه لايستطيع أن يتكلم . لو فعل لتطلعوا إليه بدهشة مذعورة حانقة ، وألم واستحياء في الوقت ذاته ... ولما كان في تلك السنّ الطرية التي تتجمد فيها النفس ، لشدة ماعليه قشرتها من رقةٍ ولطفٍ ، بأقل المؤثرات القادمة من الخارج ، وتنصهر مرتجفة تحت أصابعها الجامحة الخفية ، فسرعان ماسقط فريسة الكآبة والخجل معاً . أواه ! ماأكثر مايؤمنون جميعاً ! (ولكن ، هل يؤمنون جميعاً حقاً ؟) . كيف يفعلون ذلك ؟ إنه لايجرؤ على مجرّد طرح مثل هذا السؤال . . أن يكون المرء وحده عديم الايمان بين جميع الذين يؤمنون ، فهو أشبه إذن بمن ينقصه عضوٌ من الأعضاء ، قد يكون زائداً وعديم النفع ، ولكنّ سائر الآخرين يملكونه . عندئذٍ يخجل المرء ، وهو مضرّج الوجنتين حياءً ، عربه عن العيون ويخفيه ...

كان أخوه البكر الشخص الوحيد الذي تمكّن من فهم آلام اليافع المبرحة ، وعذاباته الجارحة . وكان بيير يضمر لأخيه

تلك العبادة التي يُكنها الصغار (ولكن يخفونها في حسدٍ وغيرةٍ واحتراسٍ كبير) للبكر، أأخاً كان هذا البكر أم أختاً، صديقاً أم غريباً، وحتى في بعض الأحايين رؤيا ساعةٍ، تلاشت إلى الأبد، ولكنها تحقق في أعينهم الحلم كاملاً غير منقوص، حلم مايريدون أن يصيروا إليه، وما يودون أن يعيشوه: أحلام عن المستقبل عذراء طاهرة، تتلاطم أمواجها الطموحة باستمرار، وتمازج تياراتها الأثيّة دون انقطاع. ولقد لاحظ البكر هذا الاكرام الساذج المرفوع إليه من أخيه، ورضي به فخوراً مزهواً، فشرع يحاول منذ ذلك الحين أن يقرأ مايعتلج في قلب الصغير، وأن يشرح له، في كثير من العناية والاحتراز، مايطالعه به هذا القلب الغضّ الطري. أليس هو أيضاً، بالرغم من كونه أكثر صلابة ومراساً من أصغره، مجبولاً مثله من تلك العجينة الرقيقة التي تحنفظ عند أفضل الرجال بشيء من الأنثى، والتي لاتخجل من ذلك مطلقاً؟ ولكن الحرب جاءت وانتزعته من حياة الجهاد التي يعيشها، ومن دراساته في العلوم، ومن أحلام العشرين ربيعاً، ومن الألفة الوثيقة مع الأخ الأصغر. لقد هجر كل شيء، في مثالية اليوم الأول الثملة،

مثل عصفور كبير مجنون ينطلق في أجواز الفضاء ، واهماً ، في بطولةٍ وعبثٍ إن منقاره ومخالبه ستضع حداً للحرب ، وتعيد إلى الأرض مملكة السلام ، ومنذ ذلك الحين آبَ العصفور إلى عشه مرتين أو ثلاث مرات ، فاقداً - وأسفاه - قليلاً من ريشه في كل مرة ... ولقد رجع عن عدد كبير من الأوهام والأحلام الباطلة ، ولكن الاعتراف بذلك كان يحزُّ في نفسه كثيراً فلا يقدم عليه . إن ذكرى إيمانه بتلك الأوهام تخجله ... يالليلاهة ! كيف لم يدرِ أن يرى إلى الحياة كما هي في حقيقتها ؟ فليجهد الآن إذن ، في عناد ، كي يفكَّ سحرها ، وليكن مقداماً ، جريئاً في قبولها كما هي ، مهما تكن مساوئها عظيمة ! ولم يكتفِ بمعاقبة نفسه على ذلك فحسب ، بل إنَّ ألماً رديئاً كان يدفعه إلى إنزال العقاب بأوهامه في قلب أخيه الفتى أيضاً حيث يجدها متربعة متسلطة . وهكذا ، عندما عاد البكر من الجبهة المرة الأولى ، وانطلق بيير عَدْواً لملاقاته والاشتياق يلتهب في نفسه المسوّرة ، ما أسرع أن ارتدّ مشدوهاً مسبوهاً ، وقد أذهله الاستقبال الذي لقيه أخوه به ، وتجمدت الحرارة المتأججة في قلبه على حين غرة ... لقد كان استقبالاً عاطفياً من

دون أدنى ريب ، ولكن في نغمته لست أدري أية سخرية مريرة قاسية ... ولم تلبث الأسئلة المتزاحمة المتدافعة على شفتيه أن نكصت على أعقابها ... كان فيليب يراها قادمة ، فيحصدها بنظرة سريعة أو كلمة مقتضبة . وتراجع بيير ، بعد محاولتين أو ثلاث محاولات ، منقبض القلب ، حزين النفس .. إنه لم يعرف أخاه ألبتة !

ولكن الآخر يعرفه كثيراً ، يعرف فيه ذاته فيما مضى من الأيام ، وما يعجز بعد اليوم عن الصيرورة إليه . وكان ينتقم منه لذلك ، ولا يلبث أن يأسف لسلوكه ، ولكنه لا يبدي شيئاً من أسفه ، بل يعاود الكرة من جديد . كان كلاهما يتألمان ، وبدلاً من أن يوحّد هذا الألم القريب بينهما ، يزيد على العكس الهوّة التي تفصلهما اتساعاً من جراء سوء تفاهم كثير المصادفة والوقوع . وكان الفارق الوحيد بين كليهما هو إدراك البكر قرب أخيه منه ، بينما بيير يظنّ نفسه وحيداً مع آلامه دون من يفتح له قلبه ...

لمَ لمْ يلتفت إذن إلى أبناء جيله ، زملائه العتيدين في الدراسة ؟ كان ينبغي على هؤلاء المراهقين ، كما يبدو للوهلة الأولى ، أن يلتفّوا حول بعضهم البعض ، ويتبادلوا العضد والمعونة . ولكن

لم يكن شيء من هذا على الاطلاق ، بل إن قضاءً كئيباً كان على العكس يُبعدهم عن بعضهم ويبعثرهم في جماعاتٍ صغيرة عديدة ، وهم متوحدون حذرون حتى في قلب تلك الحلقات الضيقة .. كان العاديون منهم قد غطسوا في التيار الحربي في حميّة وجنون ، دون تدبرٍ أو وعي ، أما سوادهم فكانوا يبتعدون عن ذلك التيار ، وقد فقدوا كل صلة بالأجيال السابقة لهم ، فلا هم يشار كونها أهواءها ، ولا هم يتقاسمون وإياها آمالها وأحقادها ، بل يتفرّجون على أفعالها المهووسة فقط مثلما يفعل القوم الصائمون تجاه الذين شربوا كثيراً ... ماذا عساهم يستطيعون ضدّ تلك الأفعال ؟ إن الكثيرين منهم قد أسسوا مجلاتٍ صغيرة كانت حياتها المؤقتة تنطفىء منذ الأعداد الأولى لنقص الهواء ، إذ أن المراقبة تنشر الفراغ في كل مكان ، وفكر فرنسا سجين جرس آلة تفريغ الهواء . وكان أكثر هؤلاء الفتيان ذكاءً ، وهم أضعف من أن يثوروا وأكرم من أن يشتكوا ، يعرفون سلفاً أن سكين الحرب مسلطة فوق أعناقهم ، فيروحون ينتظرون دورهم للمرور على المذبح ، وهم ينظرون أثناء ذلك ويصدرون الأحكام ، وكل منهم يحتفظ بها لنفسه ، في قليل من الازدراء وكثير من السخرية .

لقد ألقوا بأنفسهم ، كردّ فعلٍ مشبع بالاحتقار على عقلية القطيع الجامدة ، في نوع من الأنانية الفكرية والفنية ، في شهوانية مثالية حيث تطالب الأنا المطارَدَةُ بحقوقها ضد الجماعة البشرية . يالهذه الجماعة السخيفة التي لم تكشف عن ذاتها لهؤلاء المراهقين إلا تحت شعارات الجريمة التي يرتكبها المجموع ويتحمل هو نفسه عواقبها أيضاً . إن تجربة مبكرة قد حطمت أوهامهم وسحقتها : لقد رأوا ماتساويه هذه الأوهام عند الذين يكبرونهم سناً ، وكيف يدفعون ، هم الذين لايؤمنون بها ، حياتهم ثمناً لها... لا بل إن ثقتهم قد تزعزعت حتى في أولئك الذين يكاشفونهم سناً ، في الانسان بصورة عامة ... وعلى أية حالٍ فقد كانت الثقة تكلف غالياً في تلك الأيام ، فكل نهار يعلن عن وشاية جديدة ببعض الأفكار والاحاديث السرية التي ينقلها جاسوس وطني تمجده السلطة وتؤجج حماسته وتذكيها . وهكذا لم يكن أولئك الفتيان ، قنوطاً منهم واحتقاراً وحذراً واستسلاماً لقلقٍ فكريٍ عاتٍ ، يتبادلون أفكارهم إلا فيما ندر من الأحايين .

ولم يستطع بيير أن يجد عندهم الصديق الحميم ، هوراسيو الذي يفتش عنه همات الثامنة عشرة ... وإذا كان قلبه يطفح هولاً

من تسليم تفكيره إلى الرأي العام (هذه الفتاة العاهرة) ، فهو في أشد الاحتياج إلى توحيده ، بملء حريته ، بذرات ينتقيها بنفسه كان أطرى من أن يكتفي بذاته وحدها فيجرع نصيبه من الألم العمومي الذي يسحقه بنيرِ عذابٍ ثقيلٍ كان يبالغ في تقدير وطأته كثيراً — فالانسانية إن تحملته ، رغم كل شيء ، فلأن جلدها أقسى من البشرة الجديدة التي تكسو جسد مراهق ناحل هزيل — ولكن شيئاً آخر كان يرهقه اكثر من عذاب العالم ، ألا وهو بلاهة هذا العالم

سواء أن يتعذب الانسان ، سواء أن يلاقي المنية إن كان يعرف لذلك معنىً ! إن التضحية لأمر رائع ، إن كان المرء يدري لها سبباً . ولكن ماهو معنى العالم وأوجاعه بالنسبة إلى مراهق صغير ؟ وإن كان مخلصاً مع نفسه ، أميناً لها ، سليم التفكير ، صادق الطوية ، فماذا يعنيه من ذلك التطاحن الفظ بين الأمم التي تتقاتل ، مثل ثيران بلهاء ، فوق الهاوية حيث ستتدحرج جميعاً ؟ لماذا هذه الأوطان من الغرور ، هذه الدول التي يسودها قانون السلب والنهب ، هذه الشعوب التي يعلمونها الجريمة كواجب أوليّ ؟ لماذا هذا التذابح ، في كل مكان ، بين

الكائنات ؟ لماذا هذا العالم الذي يلتهم بعضه بعضاً ؟ لماذا كابوس تلك السلسلة الشيطانية اللامتناهية من الحياة ، الفارسة كل من حلقاتها فكيها في رقبة جاراتها ، تتغذى بلحمها ، وتغتبط بألمها ، وتحيا بموتها ؟ لماذا هذا القتال وهذا الألم ؟ لماذا الموت ؟ لماذا الحياة ؟ لماذا ؟ لماذا ؟؟

في تلك العشية ، حين عاد الفتى الى بيته ، كانت لماذا قد سكتت ...

* * *

٣

ولكن شيئاً لم يتبدل مع ذلك . كان في غرفته المزدحمة بالأوراق والكتب ، والأصوات المألوفة تحيط به من كل جانب . هذه الصفارة في الطريق تدوي معلنة زوال الخطر ، وهذه ثرثرة المستأجرين الراضية تتردّدُ في أرجاء السلم وهم يصعدون من القبو ، وتلك أصداء خطوات الجار العجوز الشيطانية يرنّ وقعها فوق البلاط دون انقطاع ، وهو يتنزه في أرجاء غرفته منتظراً منذ أشهر أوْبَةَ ابنه المختفي . ولكن غرفته قد خلت من تلك الهموم المتكاثفة التي خلفها فيها عند خروجه .

يحدث في بعض الأحايين أنّ لحناً منقوصاً يقع على الأذن أجشّ الصدى ، فيترك الفكر قلقاً حتى تنضم إليه النغمة الناقصة

فتحقق ذوبان العناصر المتنافرة أو الغريبة عن بعضها البعض ، مثلها في ذلك مثل زائرين التقوا في بيت واحد دون أن يسبق لأحد منهم معرفة بالآخرين ، فهم ينتظرون في برود من يقدمهم لبعضهم البعض ، وعندئذ ما أسرع أن يتحطم الجليد ، ويروح التوافق يسيل بينهم جميعاً . هذه الكيمياء الأخلاقية قد حققها في نفس بيير إحتكاك خفي دافئ ، دون أن يعي هو نفسه سبباً لذلك التبدل الطارىء عليه على غير انتظار ، أو يفكر أيضاً بتحليله كي يتوصل إلى فهمه وإدراكه . ولكنه كان يحس أن النفور المعهود بين الأشياء قد لان بغتة ، وأن العداوة المعتادة قد شرعت تتلاشى . إن ألماً حاداً في الرأس يسكنك منذ ساعات ويرهقك دون رحمة أو شفقة ، وإذا بك تحقق — على حين فجأة — من غيابه .. كيف رحل ؟ إن الصدغين لا يكادان يطنّان بمجرد الذكرى . ويتخذ بيير من هذا الهدوء الجديد موقف الحذر ، يرتاب في أنه يخفي وراء هدنة عابرة عودة الشر الذي تضاعفت وحشيته واشتدت قسوته بعد أن تمالك أنفاسه لقد سبق له المعرفة بتلك الهنيهات من الراحة التي يوفرها الفن لنا ، فيسود السلام قلوبنا ، ويملؤنا الفرح ويغمرنا عندما ينفذ

ذلك الانسجام الالهي بين الخطوط والألوان في عيوننا، أو تبلغ فراغ قوقعة آذاننا الطنّان تلك الألاعيب المتنوعة الرائعة التي تقوم بها، حسب قوانين الأعداد المتناسقة، الأوتار المشتبكة المتلاقية، فتبعث اللذة، أي لذة، فينا ..ولكن ذلك إشعاع يأتينا من الخارج، قل إنه شمس تمسك نيرانها البعيدة بنا معلّقين مشدودين فوق حياتنا زمناً يسيراً جداً نعاود بعده السقوط في الهاوية السحيقة.

إن الفن لم يكن في يوم من الأيام إلا نسياناً عابراً للواقع .. وهكذا كان بيير ينتظر، مذعوراً، ذات الخيبة المريرة .. ولكن الاشعاع كان يَرِدُ، هذه المرة، من الداخل ... إن شيئاً من دقائق الحياة لم ينله النسيان، ولكن الكل مع ذلك — بما فيه الذكريات والأفكار الجديدة — يحقق تناسقاً مدهشاً في غاية الروعة. لا بل إن الأشياء نفسها، الكتب والأوراق المبعثرة في الغرفة، قد دبّت الحياة فيها، فشرعت تتحرك وتستعيد الأهمية التي فقدتها منذ عهد طويل ...

منذ شهور ونموّه الفكري مضغوط، مثل شجرة فتية يستولي عليها الصقيع والجليد، فيرميانها بالذبول وهي في ملء عنفوانها

بعد .. لم يكن بيير في عداد أولئك الصبية العمليين الذين يستفيدون من التسهيلات الجامعية الممنوحة للطلاب الفتيان الذين اقترب يوم دعوتهم للخدمة ، كي ينتزعوا قبل الأوان شهادة ما تحت أنظار الفاحصين المتساهلة . كذلك لم يجرب أبداً ذلك الظمأ الجشع اليائس الذي يتملك شاباً يرى الموت يدبُّ اليه بخطىً حثيثة ، فيضاعف ما يزدرده ، ويأخذ بالتهام المعارف التي لن تسنح له الفرصة كي يتحقق في الحياة من صوابها وصحتها . كان الشعور الأزلي بالفراغ ، الفراغ الكامن في آخر الدرب ، الفراغ القابع تحت سائر الأشياء ، مختبئاً في كل مكان خلف أوهام هذا العالم القاسية اللامعقولة ، كان ذلك الشعور يقطع عليه سائر انطلاقاته ، ويسدُّ كل الطرق في وجهه . إنه يرمي بنفسه على كتاب جديد ، أو فكرة جديدة ، ثم يتوقف قانطاً ... إلامَ يعود هذا ؟ مافائدة التحصيل ؟ مانفع الاثراء إن كان لابدَّ من خسارة الكل وهجرانه ، إن كنتَ لاتملك شيئاً على الاطلاق ؟ كي يكون للفعالية ، للعلم ، معنىً ، يجب قبلاً أن تملكَ الحياةُ معنىً أيضاً .. ولكن جهود الفكر كلها ، وتوسلات

القلب بأسرها ، لم تستطع الحصول على ذلك المنى ... إنما هذا المنى يأتي من تلقاء ذاته ... إن للحياة لمنىً !..

ماذا ؟ وإذ راح يفتش عن مصدر تلك الابتسامة الباطنة صافحت أنظاره الفم المنفرج الذي يتحرّق فوه شوقاً للاطباق عليه ...

٤

هذه البهجة الخرساء ، ماأسرع ماكانت تتلاشى وتضمحل لو أن الزمان يسلك مجراه الطبيعي ... ففي هذه الساعة من المراهقة ، إذ يعشق الفتى الحب خالصاً مجرداً ، فهو يلقاه في سائر العيون على الاطلاق . إن القلب المفعم نهماً وتردداً في آن واحد يتأرجح به من عينين إلى عينين دون انقطاع . ماالذي يحثه على الثبات ؟ إنه مابرح في مطلع نهاره بعد ..

ولكن نهار اليوم سيكون قصيراً ، فلا بد من الاسراع إذن .. ويتسارع قلب الشاب بمقدار ماكان من قبل متأخراً متقاعساً . إن المدن الكبيرة المتبدية عن بعد محارق كبريتية يتصاعد منها دخان الشهوة الحسية ، لتضم في حماها كثيراً من النفوس الحية

والأجساد الطاهرة البريئة .. كم من فتيان ، وكم من صبايا ، يحترمون الحب ويجلّونه فيحفظون بتولية حواسهم حتى الزواج ! وحتى في البيئات الأكثر خلاعة ، حيث يُستثار حب الاطلاع في سنٍ مبكرة جداً ، كم من جهالات تختبىء وراء الأحاديث الصادرة عن شفتي فتاة عصرية ، أو الناطق بها طالب بسيط يدري كل شيء ولا يعرف شيئاً ! إن في قلب باريس لمقاطعات ساذجة ، حدائق صغيرة مثل الأديرة ، ينابيع رائقة من الصفاء والطهارة . وما يخون باريس هو أدبها ، لأن الذين يتكلمون باسمها هم أكثر أهلها دنساً وعاراً . أما الأكثر نقاء فغالباً ما يمنعهم نوع من الاحترام الانساني الضال عن إعلان براءتهم ..لقد كان بيير جاهلاً بالحب بَعْدُ ، فما أسرع ما استسلم لأول نداءاته .

وإلى تفكيره المسحور يجب أن نضيف هذا أيضاً : إن الحب عنده قد ولد تحت جناح الموت .. ففي تلك البرهة من الانفعال والاضطراب ، بينما هما يحسان وعيد القنابل يمر من فوق رأسيهما ، ومشهد الرجل المشوَّه الدامي يملك عليهما مشاعرهما ويعتصر القلب منهما ، سعت أصابعهما إلى بعضها البعض وتلاقت ببساطة تامة . وفي هذه اللقيا الجموح قرأ كلاهما قشعريرة الجسد

المذعور ، ومواساة حنوناً يحدب بها الصديق المجهول . وكانت إحدى اليدين ، يد الرجل ، تقول : « إعتمدي عليّ » ... أما الأخرى ، الأمومية ، فتزدلف شيبتها الخاصة لتقول : «ياصغيري!»

لم تفه الشفاه بشيء من هذا ولم تسمعه الآذان قط . إنما ذلك الهمس الباطني يملؤ النفس بصورة تفضل الكلمات بما لايقاس ، هذا الستار من الورق الذي يقنع الفكر ... واستسلم بيير لهدهدة هذا الدوّي الأشبه بلحن زنبور مذهّب يطوف في مناطق الكينونة النيّرة المظلمة ... راحت أيامه تجري ، خدرة ، في هذا الكسل الجديد ... إن القلب المنعزل العريان يحلم بدفء العش وحرارته ..

كانت باريس ، في هذه الأسابيع الأولى من شباط ، تحصي خرائبها بعد الغارة الأخيرة ، وتلحس جروحها الطرية بعد ... وكانت الصحافة تعوي بعد أن كادت تختنق لشدة ما ضيق الخناق عليها ، وتثأر لنفسها من الاضطهاد الذي ينزلونه بساحتها ؛ أما السلطة فتحارب ، حسب تعبير « الرجل الذي يُغيظ » ، الفرنسيين أنفسهم ... لقد بدأ موسم محاكمة الخونة . وكان منظر الرجل الذي يدافع عن رأسه المطلوب بعنادٍ من قبل المدّعي

العام يطرب باريس بأسرها ، باريس التي لم يقضِ على هواها المَرح أربع سنوات من الحرب ، وعشرة ملايين من الضحايا المنهارة خلف الكواليس.

ولكن شيئاً لم يكن يُشغل بال المراهق سوى ذلك الضيف العجيب الذي قدم يزوره . باللشدة الغريبة التي تملكها هذه الرؤى من الحب ، المنطبعة عميقاً في صميم الفكر ، والمجردة مع ذلك عن كل حدود واضحة بيّنة المعالم ! إن بيير لعاجز بكل تأكيد عن تعيين شكل الملامح أو لون العينين أو صورة الشفتين . كل مايستطيع هو العثور على ذلك الانفعال في باطنه. ولم تفلح سائر محاولاته لتحديد الصورة إلا في تشويهها ، وكذلك لم يكن نجاحه بأفضل عندما انطلق يفتش عنها في شوارع باريس. كان يُهدهَدُ إليه ، في كل لحظة ، أنه يراها وراء تلك الابتسامة العابرة ، أو هذه النقرة الفتية البيضاء ، أو ذلك البريق في العينين اللامعتين ، فيخفق قلبه بعنف ، وتتسارع ضرباته في حمية . ولكن الشبه مفقود بين هذه الصور الهاربة ، والصورة الحقيقية التي يفتش عنها ، والتي يعتقد أنه يهواها ويعشقها . ألم يكن يهواها ؟ إنه بالضبط ليعشقها ، ولذلك فهو يراها في كل

مكان وتحت سائر الأشكال ، فهي ابتسامة كلها ، نور بمجموعها ، حياة بكليتها ، والرسم الدقيق لن يكون إلا تحديداً لها وخنقاً . ولكن القلب يريد ذلك التحديد ويسعى إليه حتى يعانق الحب ، وحتى يتملكه .

أفلن يراها إذن أبداً ؟ إنه يدري وجودها ، ويعرف أنها العش المنشود . وفي العاصفة هي المرفأ ، وفي الليل هي المنارة تبددُ الظلمة الدامسة . يامِلاك الحب ، كن شفوقاً بنا ، وفي ساعة الموت لاتهجرنا ! ..

٥

رصيف السين ...

كان يطوي الدرب وهو ينظر ، شارداً ، إلى البضاعة التي يعرضها بعض باعة الكتب المتجولين ، النادرين اليوم ، الذين مابرحوا أمينين لمرا كزهم العتيدة . وعندما بلغ أسفل درجات جسر الفنون رفع عينيه ، فاذا هو يرى تلك التي ينتظرها ... كانت تهبط السلم مثل وعلة برية صغيرة ، متأبطة رزمةً من ورق الرسم المقوّى .. ولم يفكر خيال ثانية ، بل انطلق نحوها في عزم ، وبينا هو يصعد إليها ، وهي تهبط نحوه ، استقرت نظرات كل منهما على الآخر ، ونفذت إليه ... وعندما صاقبها تسمَّر في مكانه وقد ضرّج الخجل وجنتيه بالحمرة القانية ،

أما هي فقد أذهلتها المفاجئة ، واصطبغت وجنتاها بدورها عندما أحسّت ما اعتراه من حياء . وقبل أن يتمالك أنفاسه ، تجاوزته خطوات الوعلة وابتعدت ، حتى إذا وجد القوة أخيراً واستطاع أن يلتفت في أثرها كان ثوبها يختفي عند منعطف الشارع المطلّ على درب يلتقي برصيف السين . ولم يجرب اللحاق بها ، بل كان يرى إلى نظرتها ، وهو يعتمد درابزون الجسر ، في مياه النهر الجارية ... إن قلبه يملك ، لبعض الزمن ، مؤونة جديدة ... (إيه ، يأيها المراهقون السخفاء الأحباء !) ...

وبعد أسبوع ، كان يتمشى في حديقة اللوكسمبورغ التي تغمرها أذكاء وتملؤها بعذوبتها المذهبة ... ما أجمل شباط المشمش في هذه السنة المحزنة الكئيبة ! كان يحلم وعيناه مفتوحتان ، لايدري إن كان يحلم مايرى ، أم يرى مايحلم ، يسير في خدر جشعٍ دون هدفٍ معين ، سعيداً ، شقياً ، عاشقاً ، مشرّباً حناناً وشمساً على حدٍ سواء ، مبتسماً وهو ينقل خطاه ، شاردَ العينين ، تتحرك شفتاه دون دراية منه ، تتمتمان كلماتٍ لا ارتباط بينها ، كلمات أغنية لاتنتهي . كان يشخص إلى الرمال ذاهلاً ، فراوده الشعور بأن ابتسامة قد مرّت سريعة خفيفة إلى

جانبه ، فكأنها خفقان جناح حمامة لطيفة أثناء طيرانها في الفضاء الحرّ المديد . واستدار فرأى أنه قد صادفها ، وأنها تلتفت هي الأخرى ، دون أن تتوقف عن المسير ، تراقبه مفترة شفتاها عن ابتسامة لطيفة . وعندئذٍ لم يتردد أبداً ، بل ذهب إليها . ممدود الذراعين تقريباً ، يحمله انطلاق فتيٍّ ساذج ، فيما راحت هي تنتظره بسذاجة أيضاً . ولم يحسّا ضيقاً ، كان يخيل إليهما أنهما يتابعان حواراً سبق أن بدآه .

قال :

— أنت تسخرين مني . لك ملء الحق في ذلك .

— أنا لا أسخر أبداً . (كان صوتها ، مثل خطواتها ، حيياً رخصاً) . كنت تضحك لوحدك ، فضحكت لمّا رأيتك .

— كنتُ أضحك حقاً ؟

— أنت تضحك الآن أيضاً .

— الآن ، أنا أعلم لماذا !

ولم تسأله السبب في ذلك ... سارا جنباً إلى جنب ، وكانا سعيدين ...

قالت :

— ياللشمس الصغيرة الجميلة !

— ياللربيع الوليد !

— أكنت تبشّ له قبل برهة وجيزة ؟

— ليس له وحده ، لربما لكِ أنتِ أيضاً .

— ياللكذّاب الصغير ! ياللخبيث ! إنك لاتعرفني .

— إنْ كان يمكن ادعاء ذلك ! لقد التقينا من قبل ... كم مرة ، لاأدري ؟

— ثلاث مرات ، إذا اعتبرنا هذه أيضاً .

— آه ، أنت تذكرين ! ألا ترين إذن أننا صديقان قديمان ؟

— فلنتحدث عن هذه الصداقة !

— بكل طيبة خاطر ! إن ذلك غاية ماأريد . أوه ، فلنجلس هناك ! لحظة قصيرة ، أفلا تريدين ؟ ما أحلى الجلوس عند حافة الماء .

كانا قريبين جداً من عين « غالاتيه » التي يحصّنُها بعض العمال بألواح من الخشب درءاً لخطر القنابل .

— إني لاأستطيع ، فالحافلة ستفوتني ...

وذكرت الزمن ، فبيّن لها أن لديها بعد مايزيد عن خمس وعشرين دقيقة . بلى ، ولكنها تريد قبلاً أن تبتاع عصورها من زاوية شارع راسين حيث يباع خبز صغير جيد للغاية ، فأسرع يتناول واحداً من جيبه :

– ليس أفضل من هذا ... هلاّ تناولت شيئاً منه ؟...

فضحكت وترددت ، فوضع الخبز في يدها واحتفظ باليد في يده :

– إن ذلك ليسعدني جداً ! .. تعالي ، تعالي واجلسي ! .

وقادها إلى مقعدخشبي يقع في منتصف الممر الذي بجانب البركة .

– لديّ شيء آخر أيضاً ...

– أيها الشره ، ماذا تملك بعد ؟

فتناول من جيبه لوحاً من الشيكولاته ...

– ولكني آسف ، فهو بدون غلاف ...

– أعطِ ! أعطِ ! . إنها الحرب !

وراقبها وهي تقضم اللوح ، وقال :

– الحقّ إنها المرة الأولى التي أفكر فيها أن للحرب جانباً حسناً !

– أواه ! هلاّ أعرضنا عن الكلام عنها ! إن الحديث عنها ليسحق بصورة فظيعة .

فقال متحمساً :

– بلى ! إننا لن نتكلم عنها أبداً .

وخفّت وطأة الجوّ على حين غرة .

– انظر هذه العصافير كيف تستحم !

وأشارت إلى العصافير الدورية المتزينة على حافة العين .

– إذن ، فأنت في ذلك المساء (كان يتابع أفكاره) ، في ذلك المساء في المترو . قولي ، لقد رأيتني إذن ؟

– طبعاً !

– ولكنك لم تتطلعي أبداً في اتجاهي . لقد بقيتِ طوال الوقت تنظرين إلى الجهة المقابلة . هكذا ، كما تفعلين الآن . .

كان يراها جانبياً ، وهي تقرض خبزها وتتطلع إلى الأمام منها بعينين خبيثتين ..

– . . أنظري إليّ قليلاً !... إلامَ تتطلعين هناك ؟ ..

ولم تلتفت ، فأمسك بيدها اليمنى التي كان قفازها الممزق عند الخنصر يكشف عن طرف الاصبع الصغيرة .

– إلامَ تتطلعين ؟

– أنت الذي تتطلّع إلى قفازي !.. هل سمحت بألا تزيد في إتلافه ؟

كان منهمكاً ، شارد الذهن ، في توسيع الشق الصغير فيه ..

– أوه ، عفواً !.. ولكن ، كيف استطعت رؤية ذلك ؟

ولم تجب ، ولكنه رأى ، في الصورة الجانبية الساخرة ، طرف العين التي تضحك .

– آه ، ياخبيثة !

– ذلك بسيط للغاية ، فسائر الناس يفعلون هكذا .

– أنا ، إني لن أستطيع ذلك قط .

– جرّب !.. ولكنك تشوص ..

– إني لن أستطيع ذلك مطلقاً كي أرى يجب أن أتطلع أمامي رأساً ، بكل غباء .

– ولكن لا ، ليس بكل هذا الغباء !

– وأخيراً ، إني أرى عينيك .

وتبادلا النظر ، وهما يتضاحكان بعذوبة ..

– كيف تسمين ؟

— لوس .

— ما أجمله اسماً ، جميل مثل النهار !

— واسمك ؟

— بيير ... مستعمل للغاية .

— إسم جريء ، له عينان شريفتان صافيتان .

— مثل عيني ؟

— فيما يتعلق بالصفاء ، نعم .. فهما صافيتان .

— ذلك أنهما تطلعان إلى لوس .

— لوس ! يقولون « آنسة » !

— كلا .

— كلا ؟

فهزّ رأسه نفياً ..

— أنت لست « آنسة » . أنت لوس ، وأنا بيير ...

كانت يداهما متشابكتين . واعتصما بالصمت ، وكلٌ يتفادى نظرات صاحبه ، وعيونهما عالقة بزرقة السماء الناعمة المطلّة عليهما من خلال أغصان الأشجار العارية . كانت أمواج أفكارهما ، من خلال يديهما ، تتلاقى وتمتزج ...

قالت :

ـ في ذلك المساء كنا ، نحن الاثنين ، خائفين !

فأجاب :

ـ نعم ، وكان ذلك حسناً !

وفيما بعد فقط ابتسما لأن كلاً منهما قد عبّر عما كان يعتلج في صدر الآخر ... وأفلتت يدها منه بغتةً ، وهبّت على قدميها إذ سمعت دقات الساعة .

ـ أواه ! يكاد الوقت يفوتني !..

وذهبا معاً بتلك الخطى المسرعة التي تعرف الباريسيات كيف يحتثثنها بحلاوة جمة تجبر المرء على الاعتراف بيسرها وسرعتها معاً .

ـ هل تسلكين هذه الطريق كثيراً ؟

ـ يومياً ، إنما بالأحرى من الجانب الآخر من الساحة .. (وأشارت إلى حديقة واتو وأشجارها) في طريق عودتي من المتحف .

فنظر إلى الأوراق المقواة التي تحملها ، وسأل :

ـ أفنانة أنت ؟

فأجابت :

ـ كلا ! فتلك كلمة ضخمة جداً ، قل بالأحرى إني ملطخة أوراق صغيرة .

ـ لماذا ؟ أمن أجل التسلية ؟

ـ أواه ! كلا ، بل من أجل المال .

ـ من أجل المال ؟

ـ إنه لأمر مشين ، أليس كذلك ؟ أن يمتهن المرء الفن كي يكسب مالاً ؟

ـ إن مايدهش خاصةً هو أن يكسب الانسان المال إذا كان لايعرف فن التصوير .

ـ وإن ذلك بالضبط مايدهش . سأوضح لك كل شيء في فرصة أخرى .

ـ في فرصة أخرى ، عند العين ، سوف نتعصّر أيضاً .

ـ سوف نرى ، إن كان الطقس جميلاً .

ـ ولكنك ستأتين في وقت أبكر ؟ أليس كذلك ، قولي . يالوس ..

كانا قد بلغا المحطة ، فقفزت على سلم القاطرة ...

— أجبني ، قولي ، أيها النور اللطيف .

ولم تجب لكن عندما انطلق القطار قالت : « نعم » بجفنيها ، فيما قرأ على فمها ، دون أن تنطق بالكلمات :

— نعم ، ياپيير .

وفي الطريق ، كان كلاهما يفكران :

— عجباً ! مابال الناس مسرورين هذا المساء ؟.

كانا يبتسمان دون أن يحاولا إدراك ماحدث . كان كل مايعرفان أنهما « بمكانه » ، أنهما يمسكان « به » ، و « أنه » قد أصبح في حوزتهما . ماهو ؟ لاشيء ألبتة . إنهما ثريان هذا المساء ... وفي الدار نطلعا إلى صورتهما في المرآة بعينين حنونين ، فكأنهما ينتظران صديقاً عزيزاً . وكان يقول لنفسه « لقد وقعت نظرتها عليكَ » . وكانت تهمس في سرها « لقد كانت نظرته عليكِ » . ولجآ في ساعة مبكرة إلى الفراش متعبين ، منهوكي القوى — لماذا ؟ ينوءآن تحت عبء كل لذيذ .

كانا يفكران ، وهما يخلعان ثيابهما :

— من حسن الحظ ، الآن ، أن ثمة غداً !

- حصة حصة لذيذة

- مطاليبك

٦

غداً! . إن الذين سيأتون بعدنا لن يتصوروا ، إلا بأعظم العناء ، ما كانت تثير هذه الكلمة من يأسٍ صامت وملل لافرار له أثناء السنة الرابعة من الحرب .. إن إعياءً هائلاً يئيد على النفوس حتى بكاءَ أن يخنقها ! ما أكثر ماخابت الآمال ، وما أقبل كاتٍ عذباً !.. وهذه مئات العدد تلاحق شبيهة بالبارحة واليوم معاً ، منذورة جميعاً ، على حدٍ سواء ، للعدم والانتظار ، لإنتظار العدم . وهذا الزمان قد فقد مجراه الطبيعي المألوف ، فاذا العام الحالي أشبه مايكون بغسلين يطوّق الحياة بدائرته ذات المياه السود الدسمة ويضيّق عليها الخناق ، تعلو في تيّاره ، هنا وهناك ، موجات قاتمة مظلمة تلوح وكأنها أقلعت عن

الجريان إلى الأبد . غداً ؟ إن الغد قد مات .

أما في قلب الطفلين ، فقد بُعثَ الغدُ من قبره ..

رآهما الغد جالسين من جديد قرب النهر ذاتها ، وكذلك كلُّ غدٍ تلاه . . وكان الطقس الجميل ينعم على هذه اللقى القصيرة جداً ، والأقصر يوماً بعد يوم ، الحامل إليها كل منهما عصوره بغية أن يحظى بلذة مبادلته بعصور رفيقه . إن بيير حالياً ينتظر عند باب المتحف ... وأراد أن يرى إنتاجها ؛ فلم تتأخر أبداً في تلبية طلبه ، وإن لم تكن فخورةً مطلقاً بما صنعت يداها .. وكان ذلك الانتاج يتألف من نسخ مصغَّرة لبعض اللوحات الشهيرة ، أو لأجزاء من تلك اللوحات تمثل جماعات أو أشخاصاً أو بعض التماثيل أيضاً . ولم يكن في تلك الرسوم ما ينفر للوهلة الأولى ، وإن كان الاهمال واضحاً في سائر ثناياها ... وكنت تجد هنا وهناك خطوطاً صائبة وجميلة نوعاً ما ، ثم تقع إلى جانبها على أخطاء تلميذٍ ناشئٍ ، لا تدلُّ على جهل أساسي فحسب ، بل على عدم مبالاة مطلقة بما يمكن أن يخطر في بال الذين يشاهدونها — « لماذا ؟ إنها جيدة كفاية هكذا ! » — وراحت لوس تذكر أسماء اللوحات المنقولة ...

كان بيير يعرفها جيداً ، فلا يلبث وجهه ، كلما صافحت عيناه صورة جديدة منها ، أن ينقبض استياءً وخيبة أملٍ . وتشعر لوس باستيائه ، ولكنها تبذل كل شجاعتها كي تعرض عليه الرسوم كلها .. إليك هذه أيضاً ..

أفٍ !. هذه أبشع ماليها ! كانت شفتاها تفترّان عن ابتسامة ساحرة تهزؤ من الفنانة ومن بيير في الوقت ذاته ، وإن كانت لاتحمل أثراً من الغيظ مطلقاً ويضمّ بيير شفتيه بعنف كيلا يتكلم . ولكن مشاعره تغلبت عليه في النهاية ، فاندفع يقول عندما طلعت عليه بنسخة منقولة عن إحدى لوحات رفائيل المحفوظة في متحف فلورنسا :

— ولكن هذه الألوان مغلوطة !

فقالت :

— أوه ! لاريب أن الألوان رائعة إذن ! أنا لم أذهب إلى هناك كي أرى الأصل ، بل نقلتها عن صورة فوتوغرافية .

— أفلا يقولون لكِ شيئاً بخصوص ذلك ؟

— من ؟ الزبائن ؟ ولكنهم لم يذهبوا ليروها هم أيضاً .. ثم إنهم عندما يرون إليها ، فهم لايتمعنون فيها كثيراً ! الأحمر ،

الأزرق ، الأخضر ، إنهم لا يرون في هذه الألوان إلا النار فقط ... وأحياناً قد أملك الأصل بألوانه ، فأروح أبدل فيها .. خذ هذه مثلاً ..

وأرته صورة ملاك لموريللو .

— أتجدين هذا أفضل ؟

— كلا ، ولكنه يلذ لي فقط ... ثم إنه أسهل بالنسبة إليّ ... وبعد فسيان ذلك عندي . المهم هو أن تباع الصورة ...

ولدى ذلك توقفت عن المسير ، واستردت منه تلويناتها ، ثم انفجرت في عاصفة من الضحك ...

— ويحي ! إن ذلك لأبشع مما كنت تتصورّ ؟

فقال حزيناً :

— ولكن لماذا ، لماذا تصنعين مثل هذه الأشياء ؟

فنظرت إلى وجهه الأنيس المقطب وعلى شفتيها تيه ابتسامة سخرية حنون أمومية : يالهذا البورجوازي الصغير العزيز الذي كان كل شيء ميسوراً له ، والذي لا يتصور أن يضطر المرء أحياناً إلى التنازل عن بعض الأمور لي ...

وعاد يسأل :

– لماذا ؟ قولي لماذا ؟

كان شديد الارتباك ، فكأنه هو الذي لطخ تلك الأوراق على تلك الصورة الفظيعة !.. أيها الصبي الصغير الطيب القلب ! وودّت أن تقبّله ... بكل تعقل وحكمة ، على جبينه .

وأجابت بصوت مخفوض عذب الرنين :

– ولكن ، كي أعيش .

بغته الجواب بعنف . ذلك لم يخطر له على بال أبداً ...

فعادت تقول بنغمة ساخرة لامبالية :

– إن الحياة لمشكلة معقدة ... يجب قبل كل شيء أن يأكل المرء ، وأن يأكل يومياً دون انقطاع . لقد تناولت عشاءك مساء ، وفي الغداة يجب أن تعيد الكرة مرة أخرى . ثم لابدّ من الثياب ، يجب أن تكسو كل شيء ، جسدك ، ورأسك ، ويديك ، ورجليك .. إن الكيل ليطفح بكل هذا ! ثم ينبغي أن تدفع ثمن كل شيء ، فالحياة إن هي إلا دفع مستمر .

والمرة الأولى شاهد ماخفي عن قصر نظر عينيّ حبه : الفرو المنواضع الذي سقط الوبر منه في بعض أجزائه ، والحذائين المهترئين قليلاً ، وآثار الضائقة التي تعرف الأناقة الطبيعية المنتعة بها الفتاة الباريسية كيف تخفيها .

وانقبض قلبه ...

— أواه ! أفلست أستطيع ، أفلست أستطيع أن أساعدك ؟

فابتعدت عنه قليلاً ، وقد ضرجت حمرة الخجل وجنتيها ..

قالت مغتاظة :

— كلا ، كلا ! ليس مايدعو لذلك ـ أبداً .. لست في حاجة ..

— ولكنني سأكون سعيداً جداً إذن !

— كلا .. فلنصدف بعد الآن عن هذا الحديث إننا لن نظلّ صديقين ...

— فنحن صديقان إذن ؟

— نعم ! يعني إن أردت أن تظل كذلك بعد أن شاهدت فزّاعاتي .

— بكل تأكيد ! فالذنب ليس ذنبك !

— ولكن ذلك يسبّبُ لك ألماً وعناءً .

— أوه ! بلى ...

فضحكت عن رضىً وسرور ..

— ذلك يضحكك ، أيتها الخبيثة ؟

— كلا ، ليس في ذلك شيءٌ من الخبث . إنك لاتفهم .

— لِمَ تضحكين إذن ؟

– لن أقول لك ذلك قط !

كانت تفكر « يا حبي ! ما ألطفك إذ تتألم لأني صنعت شيئاً قبيحاً ! »

قالت :

– إنك طيب القلب . شكراً !

فشخص إليها بعينين تطفحان دهشة ...

قالت ، ضاربة بلطف على يده

– لا تجرّب أن تفهم ذلك . كفى ، فلنتحدث عن شيء آخر .

– نعم .. كلمة أخرى فقط . بودّي رغم كل شيء أن أعرف .. قولي لي (ولا تسنائي) ... هل أنت ، حالياً ، في ضائقة ؟

– كلا ، كلا ! لقد قلت ذلك قبل برهة لأننا عرفنا أوقاتاً سيئة من حين لآخر . أما الآن ، فالحال أفضل . لقد وجدت أمي عملاً ، وهي تتناول عليه أجراً طيباً .

– أتشتغل أمك ؟

– نعم ، في مصنع للذخيرة ، وتقبض اثني عشر فرنكاً يومياً . تلك ثروة ، وربي !

– في مصنع ! مصنع حربي ؟

— نعم !

— ولكن هذا فظيع !

— يالله ! ولكن المرء يأخذ مايسنح له !

— ولكن ، يالوس ، إذا أنت ، أنت ، عرضوا عليك ؟..

— أنا ، ولكنك ترى جيداً أني أخربش ... آه ، أنت ترى أني محقة في صنع هذه الخربشة !

— ولكن إن اضطررت إلى كسب عيشك ، ولم تجدي وسيلة أخرى سوى العمل في أحد تلك المعامل التي تصنع القنابل ، فهل تقبلين ؟

— إن اضطررت إلى كسب عيشي ، ولم أجد وسيلة أخرى ؟.. ولكن بكل تأكيد ، سأقبلُ إذن على العمل عدْواً !

— لوس ، ألست تفكّرين فيما يصنعون هناك ، بين جدرانه ؟

— كلا ، لست أفكر أبداً

— كلُّ مايؤلم ، ويميت ؛ كلُّ مايمزّق ، ويحرق ، ويكيل العذاب لكائنات مثلك ، مثلي ...

فوضعت يدها على فمها ، تشير عليه بالصمت والسكون .

— أنا أعرف ، أنا أعرف كل ذلك ، ولكن لاأريد أن أفكر فيه .

– لاتريدين أن تفكري فيه ؟

فقالت :

– كلا !

وأضافت بعد برهة وجيزة :

– يجب أن نعيش . إذا فكرنا ، فان نعيش إذن .. أنا ، إني أريد أن أحيا ، أريد أن أحيا . وإذا أجبروني ، كي أحيا ، على صنع هذا الشيء ، أو ذاك ، فهل سأروح أعذّب نفسي من أجل هذا الشيء أو ذاك ؟ ذلك لا يهمني ، ولست أنا التي أريده إن كان ذلك شراً ، فليس الجرم جرمي أنا ، إن ماأريده ليس شراً .

– وما تريدين ؟

– أريد أن أعيش أولاً .

– أتحبين الحياة ؟

– ولكن بلى ! هل أنا مخطئة في ذلك ؟

– أوه ! كلا ، ما أحسن بقاءك على قيد الحياة !

– وأنت ، أفلست تحبّ ذلك ؟

– لم أكن أحبه حتى...

— حتى ؟

لم يكن السؤال في حاجةٍ إلى جواب . كان كلاهما يعرفان الجواب حق المعرفة .

قال بيير ، ملاحقاً فكرته :

— لقد قلتِ : « أولاً » .. « أريد أن أعيش أولاً » ... وماذا بعد ذلك ؟ ماذا تريدين ؟

— لاأدري .

— بلى ، إنك تدرين ..

— إنك لكثير الفضول حقاً .

— نعم ، جداً .

— إن الإسرار بذلك إليك سيضايقني ...

— أذكريه لي ، في أذني ، ولن يسمعه أحد عندئذٍ .

فابتسمت :

— أريد . (وترددت) . أريد قليلاً جداً من السعادة .

كانا قريبين جداً من بعضهما البعض ...

وتابعت :

— أفي ذلك شيء من الطمع ؟.. كثيراً ماقالوا لي إن فيه

كثيراً من الأنانية . أما أنا ، فأقول في نفسي أحياناً : « فيمَ لنا الحق إذن ؟ » .. عندما يرى المرء إلى كل هذه التعاسات ، إلى سائر هذه الآلام التي تحيق به من كل جانب ، فهو لا يجرؤ إذن على المطالبة بالكثير .. ولكن قلبي ، بالرغم من كل شيء ، يطالب ويهتف : « بلى ، إن لي الحق ، لي الحق في قليل ، في قليل جداً من السعادة .. » .. قل لي بكل صراحة : أتلك أنانية مني ؟ أتجد في ذلك شيئاً كثيراً من الشر ؟

وأخذته موجة عاتية من شفقة لامتناهية ... هذه الصرخة الصادرة من القلب ، هذه الصرخة الصغيرة ، المسكينة ، الساذجة ، قد هزّته حتى أعمق أعماقه . وترقرقت عيناه بالدموع .. كانا يحسان ، وقد اقتعدا الدكة جنباً إلى جنب ، يعتمد كل منهما على صاحبه ، حرارة فخذيهما .. وودّ أن يستدير ، وأن يحتويها بين ذراعيه . ولكنه لم يجسر على الحركة لئلا يفلت منه زمام عاطفته . كما يتطلعان ، لا حركة بهما . إلى الأمام منهما ، إلى أقدامهما .

قال بسرعة كبيرة ، وبصوت ملتهب مخفوض ، حتى لا تكاد الشفتان أن تتحركا بالكلمات :

— أواه ، ياجسدي الصغير العزيز ! أواه ، ياقلبي ! لا أودّ

أن أمسك قدميك الصغيرتين بين يدي ، على فمي ... لأود أن ألتهمك بكليتك .

ودون أن تتحرك ، بسرعة عظمى وبصوت مخفوض جداً ، مثله ، قالت والاضطراب يملك عليها مشاعرها :

— أيها المجنون ! أيها المجنون الصغير !.. صمتاً ... أتوسل إليك ...

ومرّ بالقرب منهما متنزّه عجوز يسير الهوينا .. كانا يشعران بكلا جسديهما يذوبان حنانا ...

إن الممر مقفر الآن : وثمة عصفور دوري ، منفوش الريش ، يثب فوق الرمال مرحاً ، والعين تسقط قطراتها الصافية تترى ... واستدار وجهاهما ، في حياء ، كل في اتجاه الآخر . ولم تكد نظراتهما تتلامس حتى انضم فوهاهما ، في انطلاقة عصفور ، خائفين ، متعجلين : ومن ثم طارا متباعدين . ونهضت لوس ، وذهبت ... ونهض بدوره ، فقالت له « إبقَ ! »

وتلاشت منهما الجرأة على تبادل النظر . وهمس أخيراً :

— لوس ... هذا القليل جداً .. هذا القليل جداً من السعادة ... قولي ، الآن ، إننا نملكه !

٧

واعترض الزمان هذه الأُقى عند العين حيث تتنادى العصافير الدورية وتتناغى ، وجاء الضباب الكثيف يحجب شمس شباط الباهتة ويخفيها ، ولكن يعجز عن إطفاء تلك الشمس اللاهبة في قلبيهما . آه ! سيّان عندهما حالة الطقس ، أقراً كان أم حراً ، مطراً أم ريحاً ، ثلجاً أم شمساً ! ذلك حسن دوماً ، لا بل لعله أفضل أيضاً ، إذ عندما تكون السعادة في طور النموّ ، فأجمل الأيام هو دوماً اليوم الحاضر . . وجعلا من الضباب ذريعة كيلا يفترقا أبداً ، طوال جزء كبير من النهار ، فخطر اكتشاف عيون الرقباء لهما يتضاءل كثيراً في حماه ... إنه ينتظرها صباحاً في موقف الحافلة ، ثم يصحبها في جولاتها عبر باريس

الواسعة ، وقد رفع ياقة معطفه ، بينما تقبَّعت هي بقلنسوة من الفرو ، وتشكَّبت ثيابها المحيط بكتفيها حتى الذقن ، والتفت بوشاحها وضمته جيداً حول وجهها بحيث تبرز شفتاها من ورائه على هيئة حدبة صغيرة رائعة .. ولكن الشبكة الندية التي ينشرها الضباب الواقي كانت أفضل وشاح لهما ، فذلك الضباب أشبه برماد ثقيل ، رمادي ، يتخلله بريق أصفر اللمعان ، تستحيل الرؤية فيه حتى على بعد عشر خطوات فقط ، وهو يزداد كثافة كلما توغل المرء في الأزقة القديمة ، العمودية على السين .. إيه ، أيها الضباب الصديق ، حيث يستقي الحلم في شراشف جليدية ، مرتعشاً من فرط السرور ! كانا أشبه بفلقتي اللوزة في غمد الثمرة ، أشبه باللهب السجين في المصباح الأصم . وكان بيير يمسك بذراع لوس اليسرى ضاغطاً عليها ، وهما يتوائبان جنباً إلى جنب ، متعادلين في الطول تقريباً (كانت قامتها تعلو عليه قليلاً) ، يزقزقان بصوت مخفوض ، وقد تقارب وجهاهما كثيراً .. ما أعظم شوقه إلى تقبيل تلك الحدبة الندية خلف الوشاح !

كانت تغدو إلى تاجر « الأشياء القديمة » تبيعه « فجلاتها »

و « بصيلاتها الصغيرة » ، كما كانت تحب أن تقول . . ولم يتعجلا الوصول قط ، بل هما يسلكان الطريق الاطول دون قصد منهما (هذا ما كانا يؤكدانه على الأقل) ، ثم يحتملان الضباب مسؤولية خطيئتهما . . وعندما يأتي الهدف لملاقاتهما أخيراً ، بالرغم من سائر الجهود التي بذلاها في سبيل تضليله ، كان بيير يقف بعيداً عن الدكان الدالفة لوس إليها ، ينتظر اوبتها عند زاوية الشارع . كان ينتظر طويلاً ، وجسده المقرور يرتجف ؛ ولكنه كان سعيداً بالانتظار ، سعيداً باحساسه البرد القارس ، سعيداً حتى بما يثقل عليه من ملل وضجر ، مادام يتكبّد ذلك كله في سبيلها . وأخيراً كانت تعاود الظهور ، وتسرع إليه مبتسمة ، مشفقة ، قلقة عليه من شدة القرّ ولذعه . . وكان يدرك ، من مجرد النظر إلى عينيها ، مدى نجاحها فيفرح به ويهلل له ، حتى كأنه هو من ربح وأثري . . ولكنها غالباً ما كانت تعود صفر اليدين ، خاوية الوفاض . . فلابدّ من العودة مرتين أو ثلاث مرات قبل أن ينقدوها أجرها ، لا بل ماأسعدها عندما لايردون إليها العمل بفظاظة وجفاء ، كما فعلوا اليوم مثلاً ، إذ عاتبوها ووبخوها من أجل صورة مصغّرة نقلتها عن رسم رجل شجاع

قضى نحبه ، لم يسبق لها أن رأته في حياتها قط . إن العائلة ناقمة غضبي ، لأنها لم تضع لون العينين والشعر الحقيقي ، فلابد من عود على بدء إذن . وإذ كانت أقرب إلى الاستمتاع بالناحية الساخرة مما تصيب من فشل ، فهي تضحك بكل شجاعة من مغامراتها . أما بيير فلم يكن يضحك ، بل يستشيط غيظاً .

– أوغاد ! ثلاث مرات أوغاد !

وإذا أطلعته لوس على الصور المطلوب منها نسخها بالألوان ، فهو يتحرق ازدراء – (آه ، كم كانت تسرّ لغضبه المضحك !) – لهذه الرؤوس الخبيثة ، المتجمدة في ابتسامات إحتفالية مهيبة . أما أن عيني لوس ستعكسان هذه التكشيرات ، وبديها سترسمانها ... ذلك تدنيس فظيع في نظره . كلا ، إن ذلك لشنيع حقاً ! إن نسخ المتحف لأفضل على كل حال ، لكن الاعتماد عليها مستحيل بعد اليوم ، فالمناحف الأخيرة تغلق أبوابها ، بعد أن فقدت كل أهمية بالنسبة للزبائن . هذه الساعة لم تعد ساعة العذارى والملائكة ، بل ساعة الذقون المشعرة واللحى المسترسلة . إن لكل عائلة حبيباً ميتاً أو حياً ، ميتاً في غالب الأحايين ، تريد أن تخلد ملامحه . وكان الأغنياء يريدون ذلك بالألوان ،

وهو عمل جيد الأجر ، ولكنه أصبح نادراً في هذه الأيام ، فلا فائدة من التزمت إذن ، بل لابدّ من تكبير الصور ، وبأجور ضئيلة للغاية أيضاً .

ويتضح من ذلك كله انعدام كل سبب يؤخرهما في باريس . إن العمل في المنحف قد انتهى ، ولم يبق لديها إلا القدوم إلى المخزن مرة كل يومين أو ثلاثة أيام تحمل التوصيات القديمة وتتلقى أخرى جديدة بدلاً منها . فانجاز العمل ممكن إذن في البيت بعد الآن . ولكن الطفلين لم يأبها لذلك كثيراً أو قليلاً ، بل هما يضربان في الطرقات على غير هدىً ، عاجزين عن سلوك سبيل المحطة بملء إرادتهما . .

وذات مرة دلفا إلى إحدى الكنائس طلباً للراحة مما ألمّ بهما من إعياء ، وللدفء مما أصابهما من صقيع الضباب المتجمد . وهناك اقتعدا إحدى الزوايا ، عافلين حكيمين ، يتبادلان بصوت خفيض الأحاديث عن الأمور التافهة في حياتهما ، وهما يشخصان إلى زجاج النوافذ في ذهول ... ومن حين لآخر ، كان السكون يخيم عليهما ، وعندئذ تأخذ النفس ، بعد أن تحررت من قيود الكلمات (لم يكن معنى الكلمات مايثير اهتمامهما ،

بل نفحة الحياة فيها ، الأشبه باحتكاكات جامحة خفية تنبثق عن هوائيين مرتخيين يتلافيان دون انقطاع) ، بمتابعة حديث أكثر عمقاً وأهمية . وكانت أحلام الرجاج ، وظلال الأعمدة ، ودوى الترانيم في أرجاء المعبد ، تمتزج بأحلامهما ، وتبعث فيهما ذكرى أحزان الحياة التي يسعون وراء نسيانها ، أحزان الحياة والحنين المعزى إلى اللانهاية في وقت واحد ... وكانت قيلولة ضاربة إلى الصفرة تملؤ المكان ، مع أن الوقت لم يتجاوز الحادية عشرة بعد ، مثل الزيت في قنديل مقدس . ومن علٍ ، من بعيد جداً ، كانت أضواء غريبة تتلاحق ، تشمل فيما تشمل قرمز موشور قاتم ، ينعكس فوق أزهار البنفسج أحمر زاهياً ، وإلى جانب كل ذلك وجوه غامضة الملامح تطوقها إطارات حديدية سود . وهناك ، في علياء جدار الليل ، كان دم النور يفتح جرحاً ...

وعلى حين غرة ، قالت لوس :

— هل ستُساق ؟

وفهم رأساً مانعني ، لأن فكره أيضاً قد سلك ، في السكون ، نفس الدرب المظلم ...

قال :

— نعم . يجب ألا نتكلم في هذا الموضوع !

— شيءٌ واحد فقط .. قل لي متى سيكون ذلك ؟

فأخبرها :

— بعد ستة أشهر .

فتنهدت ، وصعّدت زفرة حرّى . .

قال :

— يجب ألاّ نفكر في ذلك أبداً .:. مانفع التفكير فيه ؟

قالت :

— بلى ، مانفعه ؟

وتمالكا أنفاسهما ، كي يطردا الفكرة الداخلية ، ومن ثم راحا ـ بشجاعة ـ (أو ربما يفضل أن يقال ، على العكس ، « بخوفٍ وذعر » ؟ فليقرر ذلك من يستطيع أن يعرف أين تقوم الشجاعة الحقيقية) يحملان نفسيهما ، كلاهما على السواء ، على الحديث في موضوع آخر : نجوم الشموع المرتعشة في قلب الأبخرة المتصاعدة . والأرغن الذي يُسَبِّحُ دون انقطاع ، وخادم الكنيسة الذي يمرُّ بالقرب منهما ، وصندوق العجائب والمفاجآت ، حقيبة يدها حيث كانت أصابع بيير الفضولية تتنزّه

على هواها . كانا يبذلان كثيراً من العاطفة والهوى كي يقسليا بلا شيء . إن أياً من الصغيرين المسكينين لم يتصور قط مجرد خيال فكرة الافلات من القدر المتسلط عليهما ، والذي لابدّ أن يفرق بينهما في يوم من الأيام . أن يقاوما الحرب ، أن يتحديا تيار شعب كامل ، لأسهل من ذلك أن يرفعا هذه الكنيسة التي تغطيهما بهيكلها ! إن المنفذ الوحيد هو النسيان ، النسيان حتى الثانية الأخيرة ، مع الأمل الذي يعتلج في الصميم ، الأمل في أن تلك الثانية الأخيرة لن تأتي أبداً . وحتى ذلك الحين ، فليجرعا كأس السعادة والهناء ...

وعندما خرجا ، فيما هما يتحادثان ، جذبته من ذراعه كي يلقيا نظرة على معروضات مخزن مرّا بجانبه ... كان متجراً للأحذية . ورأى نظرتها تمسح بحنان على خفين مرتفعين من الجلد قد طوقهما سَيْر لطيف المنظر ...

قال :

— جميلان !

قالت :

— محبة !

فضحك من تعبيرها ، وضحكت بدورها أيضاً ...

— أفلن يكونا كبيرين قليلاً ؟

— كلا ، إنهما مناسبان تماماً .

— ماذا لو اشتريناهما اذن ؟

فشدت على ذراعه ، وجذبته بعيداً كي تتخلص من إغراء الرؤية :

— لابدّ في سبيل ذلك من الثراء (وشرعت تصفر لحناً) ، ولكنهما ليسا لنا !

— لمَ لا ؟ إن سندريللا ، على فقرها ، قد لبست أجمل خفّين .

— في ذلك الزمان ، كانت جنيّات بعد ...

— وفي هذه الأيام ، ثمة عشاق دوماً !

فقالت في نغمة حلوة :

— كلا ، كلا ، أبداً ، ياصديقي العزيز !

— لماذا ؟ مادمنا صديقين .

— بالضبط من أجل هذا .

— من أجل هذا ؟

— بالطبع ، فالانسان لايستطيع أن يقبل من صديق .

— من عدوٍ إذن ؟

— من غريب بالأحرى . مثلاً ذلك الذي يبتاع مني ، لو أراد أن يهديني زوجاً ، ذلك الوغد !...

— ولكن ، يالوس : إن لي الحق في أن أطلب منك ، إذا أردت ، صنع صورة لي .

فتوقفت عن المسير ، كي تستغرق في الضحك .

— أنت ، تريد صورة من صنعي ؟ ياصديقي المسكين ، ماذا تريد أن تفعل بها ؟ لقد استأهلت كل تقدير ، فيما سبق ، عندما شاهدتها ... أنا أعرف جيداً أن رسومي ليست أكثر من خبزة جافة تعلق في حلقك .

— أبداً ! بل في عدادها صور رائعة حقاً . ثم ، ماذا تريدين ، إن كان ذوقي هكذا ؟

— لقد تبدل كثيراً منذ البارحة !

— أفلا يجوز أن يتبدل ؟

— لا ، ليس عندما نكون صديقين .

— لوس . صوريني !

— آه ، حسناً ! إنه جادٌ فيما يريد .

— ولكن ، بالطبع أنا جاد كل الجدّ . إني أساوي أولئك الحمقى

فشدّت على ذراعه في انطلاق لاشعوري ، وهي تقول :

— ياحبيبي !

— ماذا قلت ؟

— لم أقل شيئاً !

— لقد سمعت جيد

— إذن فاحتفظ بما سمعت لنفسك !

— لا ، لن أحتفظ به ، بل سأرده إليك مضاعفاً : حبيبتي ، ياحبيبتي ، سوف تصورينني ، أليس كذلك ؟ لقد اتفقنا ؟

— ألديك صورة ؟

— كلا .

— كيف إذن ؟ بالطبع لاأستطيع أن أصورك في الطريق .

— ألم تقولي إنك وحيدة في الدار ، في غالب الأيام ؟

— نعم ، أيام تعمل أمي في المصنع ، ولكني لاأجرؤ ...

— أتخافين أن يرانا أحد ؟

— كلا ، ليس من أجل هذا ، فليس عندنا جيران .

— إذن ، ممَ تخافين ؟

فلم تجب . .

كانا قد بلغا المحطة ؛ وبالرغم من الناس المحيطين بهما ، والمنتظرين

الحافلة مثلهما ، فقد ظل الضباب يخفيهما عن الانظار ..
وكانت تتفادى ملاقاة عينيه ، فأخذ كلتا يديها ، وقال بحنان :

- ياحبيبتي ، لاتخافي أبداً ...

فرفعت عينيها إليه ، والتقت نظراتهما ... كانت العيون مليئة بالاخلاص . قالت :

- إني واثقة .

وأغلقت عينيها . كانت تحس أنها مقدسة عنده ..

وأفلتا الأيدي .. كان القطار يتحرك ، ونظرة بيير تسأل عيني لوس .. استفهم :

- في أي يوم ؟

فأجابت :

- الأربعاء ، تعال حوالي الثانية .

وقبل أن تغادره ، استعادت ابتسامتها الخبيثة ، وهمست في أذنه :

- وسوف تحمل إلي صورة على كل حال ، فلست بضليعة جداً حتى أصورك مباشرة . نعم ، نعم ، أنا أعرف أن لديك صوراً كثيرة ، أيها الفشّار الصغير الخبيث !

٨

ماوراء شارع مالاكوف ..

أزقة مهشّمة تقطعها هنا وهناك ساحات غامضة الحدود تضيع في حقول مبهمة غير واضحة المعالم ، أزهرت فيها بين ألواح عريضة من الخشب أكواخ المتشردين الذين يجمعون الخروق نهاراً من شوارع المدينة وطرقاتها . وهذه السماء الرمادية المغبرة قد استلقت بكل سعتها على الأرض المديمة اللون التي يتصاعد دخان الضباب من عطفيها الناحلين فى جوّ قارس البرد ، تخترق ريحه العظام وتنخرها نخراً . أما الدار فالاهتداء إليها سهل ميسور ، إذ لايوجد على هذا الجانب من الدرب سوى ثلاثة أبنية يتألف الأخير منها ـ وهو منفرد لايقابله سوى

الفضاء من الجانب الآخر من الزقاق - من طابق واحد أُلحق به باحة ضيقة محاطة بسور قليل الارتفاع ، نما فيها شجرتان أو ثلاث شجرات ضامرة هزيلة ، وقام في إحدى جنباتها حديقة خضار مربعة غمرتها الثلوج المتساقطة ببساط عريض أبيض اللون .

ولم يثر بيير أية ضوضاء أثناء دخوله ، فالثلج قد أخرس وقع خطواته وأماتها . ولكن ستائر الطابق السفلي تحركت ، ثم فتح الباب عندما اقترب منه ، وظهرت لوس على عتبته . وتبادلا التحية بصوت مخنوق ، في عتمة المدخل ، ومن ثم قادته إلى الغرفة الأولى حيث مائدة الطعام . إنها تعمل في هذه الحجرة ، وذلك مسند لوحاتها قائم قريباً من النافذة ... ولم يدريا ، للوهلة الأولى ، مايقولان . لشدّ ما أطالا التفكير في هذا اللقاء ، ولكن سائر الجمل التي هيأاها سلفاً تعصاهما الآن فتأبى الخروج . ويروحان يتحاوران بصوت مخفوض ، مع أن الدار مقفرة إلا منهما فقط ، أو لعلّ وحدتهما بالضبط هي السبب في ذلك ... وبقيا جالسين طويلاً هكذا ، تفصل بينهما خطوات قليلة ، وقد التصقت أذرعتهما بجسديهما وتصلبت حتى لاحراك بها -

بل إنه لم يفطن حتى إلى إصلاح ياقة معطفه - يتحدثان عن الطقس البارد ، وعن مواعيد الحفلات ، ويتألمان إذ يحسان مبلغ بلاهتهما .

وأخيراً بذلت جهداً عظيماً كي تسأله عما إذا كان قد حمل الصور معه ، فأسرع يتناولها من جيبه ، ولم يكد يفعل حتى دبت الحياة في كليهما .. هذه الصور وسيط يمكن الاتصال من فوقه ، فهما بعد الآن لم يعودا وحيدين ، بل هنالك أعين تتطلع إليهما وترنو ، وتلك الأعين لاتضايق أبداً . ولقد فعل بيير حسناً (دون خبث أو سوء نيّة) إذ جاء بسائر صوره ، منذ كان في سنته الثالثة . كان ثمة واحدة تمثله في تنورة صغيرة ، انفجرت لوس ضاحكة سروراً وغبطة عندما رأتها ، وراحت تخاطب الصورة بكلمات حلوة تبعث على الضحك ... هل اعذب على قلب المرأة من رؤية صورة الرجل العزيز على قلبها عندما كان طفلاً صغيراً بعد ؟ إنها تهدهده في فكرها ، وتعطيه ثديها كي يرضعه ، لا بل لاتبعد عن الحلم بأنها قد حبلت به ! ثم إن الصورة (والمرأة ليست غريرة أبداً) حجة ملائمة جداً تتذرع بها كي تقول للصغير مالا تستطيع أن تخاطب الكبير

بة . وعندما سأل أية صورة تفضلها . أجابت دون تردد :

— ذلك الطفل الصغير العزيز !

ماأشدّ رصانته ، منذ ذلك الحين ! يكاد يكون أكثر رزانة منه اليوم أيضاً .. حقاً لو أن لوس وجدت الجرأة (وإنها بالضبط لتجرؤ) على النطر كي تقرن بين الاثنين ، لوجدت إذن في عيني بيير اليوم تعبيراً ينمّ عن استسلام مطلق وفرح طفولي لاتجدهما عند الصغير . ذلك أن عيني الصبي ، هذا البورجوازي الصغير الذي ضيق عليه الخناق ، لاشبه بعصفورين سجينين في قفص ، يعوزهما النور أشد العوز . وهذا النور قد جاء ، أليس كذلك ، يالوس ؟. وأراد ، بدوره ، أن يرى إلى صور لوس ، فأطلعته على بنت في سن السادسة ، مجدولة الشعر في ضفيرة ضخمة ، تضم بين ذراعيها كلباً صغيراً . وعندما شاهدت نفسها فكرت في خبث أنها لم تحب يومذاك أقل منها اليوم ، ولا بصورة مختلفة كثيراً أيضاً ! . إن كل القلب الذي تملكه قد أعطته منذ ذلك الحين إلى بيير ، إلى كلبها ! .. كان ، منذ يومئذ ، موقوفاً على بيير ، بانتظار قدومه . ثم أطلعته أيضاً على فتاة بين الثالثة عشرة والرابعة عشرة من سنيها ، تلوي عنقها

في كثير من الدلال والغرور . وكان هناك دوماً ، من حسن الحظ ، في زاوية الشفتين ، تلك الابتسامة اللطيفة المفعمة خبثاً ، التي يلوح أنها تقول .

— أنت تعلم أني أتسلى ، وأني لست جادة فيما أفعل . .

لقد نسيا تماماً ، الآن ، ماكان يقيدهما من الضيق والحياء .

وراحت تسوّد الصورة ... كان عليه أن يجلس دون حراك ، وألا يتكلم إلا من طرف الشفتين فقط ، بحيث كانت هي التي تتكلم طوال الوقت إن غريزتها لتستشعر خوفاً من الصمت والسكون . وكما يحدث عادةً للكائنات السليمة الطوية التي تتحدث كثيراً ، فما أسرع ماشرعت تعترف له بأمور كثيرة خاصة من حياتها أو حياة ذويها ، لم يكن في نيتها أن تريها قط . وكانت تسمع إلى نفسها ، مذهولة ، تقص تلك الأشياء ، عاجزةً عن تمالك نفسها بعد أن زلّت القدم بها مرة . إن سكون بيير نفسه لأشبه بمنحدر يسيل النيار عليه دون توقف .

إنها تروي قصة طفولتها التي قضتها في الريف ، في مقاطعة توريس . حيث علقت أمها — وهي من عائلة ميسورة الحال ، بورجوازية الأصل — بحب مدرّس القرية الذي كان ابناً لأحد

المزارعين فيها . وعارضت العائلة البورجوازية في الزواج ، ولكن العاشقين كانا أكثر عناداً أيضاً . وانتظرت الفتاة حتى بلغت السن القانونية كي توجه إنذاراتها إلى ذويها الذين رفضوا الاعتراف بها منذ الزواج . ولقد قضى العروسان الشابان سنوات مفعمة بالحنان والضيق المادي استنفد الزوج خلالها كل قواه كي يضمن للبيت حياة لائقة ، ثم أتاه المرض أخيراً ، فقبلت الفتاة بكل شجاعة هذا الواجب الاضافي . وراحت تقوم لوحدها بالعمل لوحدهما من أجل الاثنين معاً . والتزم أهلها موقفهم السابق تجاه كرامتهم الجريح ، فرفضوا تقديم العون لها . ثم مات المريض قبل إعلان الحرب بشهور قليلة . فلم تجرب المرأتان معاودة الاتصال بعائلة الأم . كان هؤلاء على استعداد لاستقبال الفتاة ، بشرط أن تقوم هي بالخطوات الأولى التي ستعتبر عندئذ تعويضاً عن سلوك الأم . إنهم يستطيعون الانتظار إذن ! لسوف يأكلان الحجارة بالأحرى ، وبكل شهية طيبة أيضاً !

ويعجب بيير من قساوة قلب هؤلاء الأهل البورجوازيين ؛ أما لوس فلا تجد فيها أمراً غير طبيعي .

— أتعتقد أنه لا يوجد كثير من أمثالهم ؟ ليسوا هم بالأشرار

طبعاً ، كلا ، فأنا متأكدة من أن أجدادي ليسوا كذلك على الاطلاق ، لابل أظن أنهم كانوا يتألمون عندما يمتنعون عن أن يهتفوا بنا : « إرجعا ! » .. ولكن كرامتهم قد لقيت كثيراً من الاذلال ! وليس من عظيم ، عند الناس ، مثل محبة الذات . إنها أقوى من كل شيء آخر . وعندما يسيء المرء إليهم ، فليس هناك الاساءة التي وجهت إليهم فحسب ، بل هناك أيضاً « الاساءة » هكذا بأحرف كبيرة وبكل تجريد ... إن الآخرين على ضلال ، وهم وحدهم محقون فيما يذهبون إليه . وهكذا يتركونك ، دون أية نية شريرة (كلا ، في الحقيقة ليسوا هم بالأشرار أبداً) تموت بالقرب منهم ، شيئاً فشيئاً ، بالأحرى من أن يعترفوا بأنهم قد أخطأوا ، وأن الحق لم يكن في صفهم ... أواه ! ليسوا هم الوحيدين في هذا المضمار ، بل إن العالم قد شاهد الكثيرين من أمثالهم !... قل ، هل أنا مخطئة ؟ أفليسوا هم كما ذكرت ؟

وكان بيير يتأمل ، وكان مصعوقاً ، لأنه كان يفكر :

— ولكن بلى ، إنهم كما ذكرت .

وطالعه على حين غرة ، من خلال عيني تلك الفتاة الصغيرة ، الفقر العظيم الذي يسيطر في قلب تلك الطبقة البورجوازية التي

ينحدر منها ، والقحط المطلق الذي يرهق صحراء الروح منها باللأرض الصلبة ، الجافة ، المجدبة ، التي امتصت شيئاً فشيئاً عصارات الحياة ولم تجددها ، مثلها في ذلك مثل تلك المناطق من آسيا حيث تتلاشى الأنهر العظيمة الخصبة ، قطرة فقطرة ، تحت الرمال البلورية . هؤلاء القوم لا يحبون أبداً ، وحتى أولئك الذين يحسبون أنهم يحبونهم ، فهم إنما يفعلون ذلك بصفتهم ملاكاً فقط ، بحيث يضحون بهم على مذبح أنانيتهم ، وكبريائهم القاحلة ، وذكائهم الضيق العنيد . وكان بيير يرد تلك الأفكار ، في أسىً ، على أهله وعلى نفسه ، فيلجأ إلى الصمت ، ويعتصم به فلا ينبس ببنت شفة .. وارتعش زجاج الغرفة بفعل طلقات بعيدة ، فاندفع بيير يقول بمرارة ، وهو يفكر في أولئك الأبرياء الذين يتساقطون بالآلاف في ساحة القتال :

— وهذا أيضاً من صنع أيديهم .

بلى ، إن الهواء الخانق الذي يندّ عن هذه المدافع هناك ، والحرب العامة ، والكارثة العظمى .. كل هذا تتحمل قسطاً من مسؤوليته تلك البورجوازية المغرورة ، الضيقة التفكير ، بجفاف قلبها ، ولا إنسانيتها . أما الآن ، فان الشيطان الذي أُطلِقَ من

عقاله ان يتوقف أبداً (وهذا عدل) مالم يلتهم تلك الطبقة ، ويقضي عليها نهائياً ..

وقالت لوس :

— وهذا عدل .

فقد كانت ، دون وعي منها ، تتابع بيير في تفكيره ...

وانتفض هذا الأخير من رجع الصدى ، وقال :

— بلى ، عدل هذا ، عدل كل ما يجري . لقد شاخ هذا العالم كثيراً ، فصدر حكم القضاء بحقه : يجب أن يموت !

ورددت لوس ، مطرقة الرأس في خضوع كئيب :

— نعم ...

يالهما وجهين صغيرين رصينين مطرقين تحت ثقل القضاء ، يحمل جبينهما المجعد بالهم تلك الأفكار اليائسة !

وأخذ الظل يرتفع في الحجرة رويداً رويداً ... لم يكن الجو فيها دافئاً ، فتركت لوس عملها ، متجلدة اليدين ، دون أن تسمح لبيير برؤيته ، وذهبا إلى النافذة يتأملان المساء الهابط على الحقول الحزينة والتلال المشجرة . وكانت الغابات البنفسجية تؤلف نصف دائرة ترتسم على السماء الخضراء لمغيرة برذاذ من الذهب الشاحب .

إن شيئاً من روح بوفيس دي شـافانس [1] يتموّج في الطبيعـة . وصدرت عن لوس كلمة عابرة أثبتت له أنها تعرف كيف تقرأ هذا التناسق الخفي الجميل ، فدهش لذلك تقريباً . ولكنها لم تغضب لما بدر منه ، بل قالت إن المرء يستطيع أن يشعر بما يعجز عن التعبير عنه ، فهي إن كانت تسيئ التصوير فالذنب ليس ذنبها ، مادامت لم تستطع تكميل دراستها في الفنون التزيينيـة بسبب بعض التوفير الذي ربما كان في غير محله . ثم إن الفقر وحده قد قادها إلى امتهان التصوير ، فما ضرورته لولا الفاقة ؟ أفلا يجد بيير أن سائر الذين يمتهنون الفن تقريباً ، إنما يفعلون ذلك دون ضرورة حقيقيـة ، بل بفعل زهوٍ باطل يريدون به أن يشغلوا أنفسهم ، أو لأنهم حسبوا في البدء أنهم في حاجـة إليـه ثم رفضوا فيما بعد الاعتراف بأنهم قد ضلوا الطريق وأخطـأوا ؟ لايحقّ للمرء أن يصبح فناناً إلا إذا كان قاصراً تمام القصور عن الاحتفاظ لنفسه بما يشعر به ، إذا كانت عواطفه تطفح عنـه . أما هي ، لوس ، فان ماتملكه من تلك الاحساسات يكاد لايفي بحاجة إنسان واحد . واستدركت :

---

(١) فنان فرنسي .

– لا ، بل بحاجة اثنين فقط .

ذلك أنه راح ينظر إليها شذراً ..

وأخذت السمرة تجتاح الخطوط الذهبية الجميلة التي تزين السماء ، في حين ارتدى الحقل المهجور قناعاً من اليأس القاتل . وسأل بيير إن كانت لوس لاتستشعر خوفاً في هذه الوحدة ، فأجابت :

– كلا .

– عندما تعودين متأخرة ؟

– ليس هناك أي خطرٍ ألبتة ، فاللصوص لايأتون حتى هذا المكان . إن لهم عاداتهم ، فهم أيضاً بورجوازيون حقيقيون . ثم إن لنا جاراً من جامعي الخروق يقتني كلباً . أضف إلى ذلك أني شخصياً لاأخاف . أوه ! أنا لا أفتخر بذلك ، فليس لي في ذلك أدنى فضل أو جدارة ... أنا لست شجاعة ، ولكن فرصة ملاقاة الخوف الحقيقي لم تسنح لي بعد ... ويوم ألقاه ، قد أصبح أكثر جبناً من سواي من الناس . هل يستطيع المرء أن يعرف ماهي حقيقته ؟

فقال بيير :

– أنا مثلاً ، إني أعرف ماهي حقيقتك ...

— آه ، ذلك أكثر سهولة بالطبع . أنا بدوري أعرف عنك . إن المرء ليعرف دوماً عن سواه أكثر مما يعرف عن نفسه .

كان صقيع المساء الرطب ينفذ عبر الزجاج المغلق . فأحسّ بيير قشعريرة خفيفة تجتاح جسده برمته ، شاهدتها لوس في عنقه ، فأسرعت تهيئ له كأساً من الشوكولاته سخنتها على شعلتها الغولية ... وتناولا معاً عصوراً خفيفاً ، ومن ثم ألقت لوس وشاحها على كتفيه بحنان أموميّ ، فتركها تفعل مثل قط ينعم بدفء الغطاء . وردهما جريان أفكارهما من جديد إلى القصة التي لم تكملها لوس . قال :

— أنتما الآن وحيدتان ، والدتك وأنت ، وحيدتان تماماً ! لاريب إذن أن مودتكما عظيمة جداً .

فقالت :

— نعم ؛ كنا كذلك .

فردّد بيير :

— كنتما ؟

فقالت ، وقد ضايقتها قليلاً هذه الكلمات التي أفلتت منها دون وعي . لماذا تقول له دوماً أكثر مما تريد أن تصرّح

به ؟ ومع ذلك فهو لايسألها شيئاً . إنه لايجرؤ على السؤال ، ولكنها ترى أن قلبه يستفهم .. وما أحلى أن يعترف الانسان بكل شيء عندما يفعل ذلك للمرة الأولى ! إن سكون المنزل ، والظل النيّر في الحجرة ، يدفعان إلى الاستسلام .

قالت :

— أوه ، نحن مانزال متحابين كثيراً .

وتابعت بعد قليل :

— من يدري كيف تجري الأمور منذ أربع سنوات ؟ إن العالم بأسره قد تبدّل .

— أتعنين أن والدتك قد تبدّلت ، أم أنت التي تبدلتِ ؟

فرددت :

— العالم بأسره !

— في أي شيء ؟

— لاأدري . . ولكن المرء يشعر أن الصلات في كل مكان بين الناس الذين يعرفون بعضهم بعضاً ، وحتى في العائلة الواحدة ، لم تعد مثلما كانت عليه . والمرء ليس على ثقة من أي شيء كان : يسأل نفسه صباحاً : « ماذا سأرى هذا المساء ؟ وهل سأعرفه ؟ »

نحن مثل ذلك المتعلق بخشبة فوق اللجة ، وهو على وشك الغرق في كل لحظة ...

— ماذا عساه قد جرى ؟

فقالت لوس :

— لاأدري ... لست أستطيع أن أعبر عما يجول في نفسي . ولكن ذلك بدأ والحرب سوية .. إن هناك شيئاً معلقاً في الهواء ، والناس جميعاً في اضطراب وقلق . وإنك لتجد كلاً يذهب في طريقه الخاص ، حتى أولئك الذين كانوا ، في العائلة الواحدة ، لايستطيعون عن بعضهم استغناء . كلٌ يركض ، فكأنه سكران ، وأنفه عالق بالدرب الذي يسير عليه .

— إلى أين ؟

— لاأعلم ، وهم أيضاً لايعلمون ، فيما أعتقد . إنهم يذهبون حيث تدفعهم الصدفة والرغبة ، فالنساء يهوين عشاقاً ، والرجال ينسون زوجاتهم ، وهم جميعاً مع ذلك قوم طيبون كانوا يلوحون قبلاً على غاية الهدوء ، وحسن التصرف ! إن الأخبار تترامى إليك من كل حدب وصوب عن عائلات انفرط عقدها وانتثر . وهذا هو مايحدث أيضاً بين الآباء والأبناء . إن أمي ..

وتوقفت قليلاً عن الكلام، ثم تابعت:

— إن لأمي حكايتها الخاصة.

وتوقفت، مرة أخرى...

— أوه! إن ذلك أمر طبيعي للغاية، فهي ماتزال في شرخ الشباب بعد، والأم المسكينة لم تحصل على كامل نصيبها من السعادة والهناء. إنها لم تبذل بعد كل ماعلك من محبة وعاطفة، فهي على حق في بناء صرح حياتها مجدداً.

فسأل بيير:

— أتريد أن تتزوج؟

فهزت لوس رأسها. إنها لاتعرف الحقيقة جيداً... ولم يجسر بيير على الاصرار.

— إنها مابرحت تحبني كثيراً، ولكن شيئاً في محبتها قد تبدّل. فهي اليوم تستطيع الاستغناء عني... يالأمي المسكينة! لاريب أنها ستتمزق ندماً وألماً فيما لو أدركت أن محبتها لي لم تعد تحتل المكان الأول في قلبها، إنها لن تعترف بذلك أبداً..

— حقاً، ماأسخف هذه الحياة!

كانت ابتسامتها عذبة حزينة، لاتخلو من بعض الخبث أيضاً.

ووضع يده بحنان فوق كلتا يديها المستلقيتين على المائدة ، وظل دون حراك .. قال :

– إننا كائنات مسكينة .

فأجابت بعد لحظة :

– نحن ، ماأعظم هدوءنا ! أما الآخرون فالحمى تملكهم : الحرب ، المصانع ، فهم في عجلة من أمرهم ، إذ يجب أن يعملوا ، وأن يعيشوا ، وأن يفرحوا ...

فقال بيير :

– بلى ، إن ساعة اليوم قصيرة .

فقالت لوس :

– وهذا سبب جديد يدفعنا إلى الصدوف عن العدو ، إذ سوف نصل دوماً مبكرين في النهاية . فلنمشِ إذن بخطوات وئيدة .

فقال بيير :

– ولكنها هي التي تعدو ، ويجب أن نمسك بها جيداً .

فصاحت لوس ، وهي تمسك بيده :

– إني أمسكها ، إني أمسكها ! ..

وهكذا كانا يتحدثان ، كل بدوره ، في شتى المواضيع بحنانٍ

ورزانة ، فكأنهما صديقان قديمان . وكانا حريصين دوماً على أن تظل المائدة فاصلاً فيما بينهما ..

وفجأة ، لاحظا أن الليل قد ملأ الغرفة ، فانتصب بيير بتسرّع ، ولم تسعَ لوس للامساك به لقد انقضت الساعة القصيرة ، وهما يخافان من تلك التي قد تأتي الآن .. وتبادلا تحية الوداع بذات الاغتصاب وبنفس الصوت الخفيض الحنون اللذين تبادلا بهما تحية اللقاء .. وعند العتبة ، لم تجرؤ يداهما على تبادل الضغط إلا بصعوبة عظمى.

وبعد أن أغلَقَ الباب ، عندما أضحى قرب مخرج الحديقة ، إذ التفت نحو نافذة الطابق السفلي للمرة الأخيرة ، شاهد ـ في الانحكاس الأخير للقيلولة النحاسية ـ قامة لوس تتبعه ، في ارتياب الضوء القاتم المعتم ، بوجهٍ مشغوف ، فأسرع يعود أدراجه حتى النافذة ، وأطبق بفمه على الزجاج المغلق .. وتلاقت شفاهما من خلال جدار البلور ، ثم تراجعت لوس إلى قلب عتمة الغرفة ، وأسدلت الستار من جديد ...

٩

منذ أسبوعين وهما لايدريان شيئاً ما مما يجري في العالم .. قد يعتقل الناس في باريس ويُدانون دون حساب ، وقد توقع ألمانيا المعاهدات ثم تضرب بها عرض الحائط ، وقد تكذب الحكومات ، وتكيل الصحافة الشتائم تترى ، وتتقاتل الجيوش وتحمل الموت معها حيثما حلّت .. إنهما لايقرآن الجرائد ولا يعيرانها أدنى اهتمام . كانا يعلمان أن هناك الحرب ، في مكان ما حولهما ، مثلما هناك النيفوس ، أو النزلة الوافدة أيضاً ، ولكن ذلك لا يتصل بهما من قريب أو بعيد ، وهما يرفضان حتى مجرد التفكير فيه ..

ولكن الحرب ، في تلك الليلة ، ذكرتهما بنفسها .. كانا

قد سعيا إلى السرير (فهما يهبان الكثير من قلبيهما في هذه الأيام بحيث يتهاويان إعياءً ، إذا ماأقبل المساء) حين صاحت سمعهما ، كل في حيّه ، صفارة الانذار تدوّي في عنف ، فأبيا مغادرة الفراش ، بل دفن كل منهما رأسه فيه ، تحت الأغطية ، مثل طفلٍ صغير أثناء العاصفة . لم يكن ذلك خوفاً منهما وفَرَقاً . (لقد كانا على يقين تام من أن الشر لن ينالهما أبداً) ، بل سعيا وراء الاستغراق في حلمٍ جميل . وكانت لوس تفكر ، في الليل ، وهي تصيخ السمع إلى الريح الجفول المزمجرة :

— ماأحسن أن أسمع ، بين ذراعيه ، مرور العاصفة !

أما بيير فيسدُّ أذنيه حتى لايعكر شيء صفو أفكاره . إنه يبحث في عناد ، على مفاتيح الذكرى ، عن لحنِ ذلك النهار الجميل ، عن خيط الساعات العذب منذ اللحظة الأولى التي دخل فيها بيت لوس ، عن أكثر الأصوات التي ندّت عنها خفوتاً ورقة ، وأكثر الحركات التي قامت بها ضآلة وبساطة ، عن الصور المتتابعة التي اختطفها النظر بسرعة فائقة ... من ظلٍ يلقيه الجفنان ، أو موجةٍ من الانفعال تمرُّ سريعةً تحت الاهاب ، مثل قشعريرة تعدو تحت سطح المياه ، حتى الابتسامة التي

تمس الشفتين مساً رقيقاً ، فكأنها شعاع من النور اللطيف ، أو راحة يده المستلقية ، الغافية على نعومة اليدين العاريتين الممتدتين... عن سائر هذه المقاطع الصغيرة الثمينة التي يحاول خيال الحب السحري أن يجمعها في ضمة واحدة . إنه لن يسمح لضوضاء الخارج بالدخول ، فالخارج بالنسبة إليه زائر ثقيل الظل ، بغيض المحضر ... الحرب ؟ أنا أعرف ، أنا أعرف . هي ههنا ؟ فلتنتظر إذن !. وكانت الحرب تنتظر عند الباب ، في صبرٍ وأناةٍ ... إنها تعلم أن دورها آت بكل تأكيد ، وهو يعرف ذلك أيضاً ، ولذلك لايخجل من أنانيته . إن موجة الموت سوف تأخذه عما قريب ، فهو ليس مديناً لها إذن منذ الآن ، سلفاً ، بأي شيءٍ كان ، لاشيءٍ مطلقاً ! فليرجع الموت إذن في موعد استيفاء دينه ! وحتى ذلك الحين فليصمت ! أواه ! إنه يريد ، حتى ذلك الحين على الأقل ، ألاّ يضيع شيئاً من هذا الزمن الرائع ، فكل ثانية هي حبة ذهب عنده ، وهو ذلك البخيل الذي يتحسس كنوزه في جشع... هذا لي ، إنه ملكي . لاتقربوا سلامي ، ولا حبي ! هذا لي حتى تحين الساعة . وعندما تأتي الساعة ؟ عساها لن تأتي أبداً ! أعجوبة ؟ ولم لا ؟ .

وفي انتظار ذلك كان تيار الساعات والأيام يستمرُّ في جريانه ، وعند كل منعطف جديد تقترب زمجرة الشلالات الصاخبة . وكان بيير ولوس مضطجعين في القارب باسترخاء يسمعان إليها . . ولم يكونا خائفين ... حتى ذلك الصوت العظيم يهدهد ، مثل أرغن مخفوض الصدى ، أحلامهما العاشقة . وعندما يشرفان على الهاوية ، سوف يغلقان أعينهما ، ويتعانقان بشدة أعظم أيضاً ، ثم ينتهي كل شيء ، دفعة واحدة . إن الهاوية توفر عناء التفكير في الحياة التي سوف تكون ، يمكن أن تكون ، في المستقبل عديمة الغاية . ذلك أن لوس كانت تشعر ، سلفاً ، بالحواجز التي ستعترض سبيل بيير فيما لو أراد أن يتزوج منها ... وكان بيير ، بدوره ، يهاب تلك الحواجز ، ولكن بصورة أقل وضوحاً . (إنه لايحب الوضوح كثيراً) . فلنصدف عن النظر بعيداً جداً ! إن الحياة ماوراء الهاوية ، مثلها مثل تلك « الحياة الأخرى » التي يتحدثون عنها في الكنيسة يقولون إن الناس سيلتقون فيها من جديد ، ولكنهم ليسوا على يقين تام من ذلك . إن شيئاً واحداً نحن على يقين منه ، ألا وهو الحاضر ، حاضرنا . فلنسكب فيه إذن ، دون حساب ، كل نصيبنا الآخر من الأبدية .

وكانت لوس تسأل عن الأخبار أقل مما يفعل بيير نفسه . هذه الأخبار لاتعنيها ؛ إن هي إلا تماسة زائدة ، بين سائر التماسات التي نُسجت منها الحياة الاجتماعية ، وليس من يعجب لذلك إلا أولئك المعتصمون في منأى عن الحقائق العارية . وتروح الفتاة الصغيرة ، المبكرة التجربة ، العارفة معنى النضال من أجل الخبز اليومي - خبزنا الجوهري أعطنا اليوم . . (إن الله لايعطيه مقابل لاشيء !) - ترفع اللثام لصديقها البورجوازي عن الحرب القاتلة الساحقة التي تملك وتسيطر ، بالنسبة إلى الناس الفقراء ، والنساء منهم بصورة خاصة ، بكل مراءاةٍ وخداعٍ ، ولكن دون رحمةٍ أو شفقةٍ ، تحت شعار السلم الكاذب ... ومع ذلك فلم تفضح كثيراً من الأمور أمامه ، مخافة أن تؤلمه وتبعث الحزن في قلبه . وكان ينتابها ، عندما ترى إلى الذهول الذي يصيبه لدى سماع حكاياتها ، شعور حنون يتفوقها عليه ، فهي مثل أكثر النساء لاتبطن تجاه بعض بشاعات الحياة ذلك القرف الأخلاقي والحكمي الذي يملأ نفس الفتى الصغير ... لم يكن فيها شيء من الثائرة مطلقاً ، فلا ريب أنها كانت تقبل ، دون قرفٍ أو تقزز ، في ظروف أسوأ من التي تعيش فيها الآن ، مهمات تبعث على

لاشمئزاز الشديد والنفور العنيف ، لتخلص منهـا هادئة نظيفة الم يلحق بها أدنى رجس على الاطلاق . أما الآن ، فقد أصبحت عاجزة عن ذلك تماماً ، لأنها تشرّبت بفعل حبها - منذ عرفت بيير - أذواق صديقها ، فهى تحب ما يُحبّ ، وتبغض مايبغض ... ولكن طبيعتها الخاصة لم تكن كذلك على أية حال ، بل هي في الأصل هادئة ضحوكاً ، غريبة تماماً عن معنى التشاؤم ، ليس من شأنها الكآبة أو مظاهر العزلة عن الحياة . إن الحياة هي كما هي ، فلنقبلها كما هي إذن ! كان يمكن أن تكون أكثر رداءة وسوءاً ! إن مصادفات هذا الوجود الذي عرفته لوس دوماً عديم الاستقرار ، وعلى الأخص منذ بداية الحرب ، قد علّمتها عدم المبالاة بالغد . أضف إلى ذلك أن كل اهتمام بالعالم الآخر كان غريباً عن هذه الفتاة الفرنسية الحرة التفكير . إن الحياة لتكفيها ، ولوس تجدها جميلة ، وإن تكن عالقة بخيط رفيع تكفي أبسط العوامل كي تكسره ، بحيث لاجدوى في الحقيقة من العذاب بالتفكير فيما سيحمل الغد معه . إيه عينيّ ، اجرعا النهار الذي يغمركما أثناء مروره ، أما الغد فيا قلب استسلم باطمئنان إلى التيار !... مادام لاسبيل إلى غير ذلك !... أما الان

فالتبادل الحب ، أليس هذا لذيذاً ؟ إن لوس لتدري أنه لن يدوم طويلاً ، ولكن حياتها ، هي أيضاً ، لن تدوم طويلاً . .

لم تكن تشبه مطلقاً هذا الفتى الصغير الذي يحبها والذي تحب ، رقيقاً ، ملتهباً ، عصبياً ، شقياً وسعيداً معاً ، يفرح ويتألم دوماً بصورة زائدة ، الذي يستسلم ويكبو في شغفٍ دوماً ، وهو عزيز عليها جداً ، بالضبط لأنه لا يماثلها أبداً ، أبداً لا يماثلها... ولكن كلاهما كانا متفقين ، في إرادة صامتة ، كيلا يتطلعا إلى المستقبل ، عازفين عن ذلك في عناد ، هي بعدم مبالاة الساقية القنوع التي تغني ، وهو بانكار حماسي يغوص في هاوية الحاضر ، ولا يريد منها خروجاً ...

١٠

وعاد الأخ الأكبر في مأذونية أيام قليلة ، فلاحظ منذ الوهلة الأولى أنّ شيئاً قد تبدّل في جوّ ذلك البيت العائلي . ماذا ؟ إنه لايدري تفسيراً لذلك ، وإن كان يتضايق منه كثيراً . إن للروح لامسة تُشاهد عن بعد عظيم ، قبل أن يتمكن الوجدان من جسّ الأشياء والتحقق منها . وليس أكثر من لامسة محبة الذات دقة وإحساساً ، فهي عند فيليب تختلج ، وتُنقب ، وتُدهش ، لأن شيئاً ما يعوزها ... أفلا تحيط به من كل جدب وضوب تلك الدائرة المعهودة من العطف والمحبة الرافعة إليه ضريبة الاكرام المألوفة ؟ أولئك السامعون إليه في انتباه عظيم ، يروي لهم أقاصيصه وهو يكاد أن يضنّ بها ، أهله الذين يحضنونه

باعجابهم الرؤوم ، الأخ الأصغر ؟... وقوفاً ههنا ! إنه هو ، بالضبط ، من لايستجيب النداء !

إنه حاضر دوماً ، ولكنه لايترامى على أخيه كما كان يفعل من قبل ولا يستعطيه اعترافاته كالعادة ، هذه الاعترافات التي يغتبط الكبير بامساكها عنه . يالمحبة الذات المسكينة ! إن فيليب الذي كان يُبدي ، في المرات السابقة ، شيئاً من الاعياء الواقي والساخر معاً تجاه أسئلة أصغره الملتهبة ، لناقم هذه المرة لاعراض أخيه عن التوجُّه إليه بمثل تلك الأسئلة بالذات ... ويروح يسعى لاستفزازها ، فيزداد بلاغةً في أحاديثه ، وهو يتطلع إلى بيير بطريقة خاصة طوال الوقت ، فكأنه يريد أن يوحي إليه بأنه إنما يروي أقاصيصه من أجله خصيصاً . ولا ريب أن بيير ، في غير هذا الحين ، كان يختلج فرحاً وغبطة فيتلقف مايلقى إليه أثناء طيرانه في الفضاء ... ولكنه ترك لفيليب مهمة التقاطه من الأرض هذه المرة ، أللهم إن كانت له رغبة في ذلك . واغتاظ فيليب ، فجرب أن يسخر منه ، فاذا الآخر ، بدلاً من أن يضطرب ويحتار ، يكيل له من الكيل ذاته . وأراد فيليب أن يناقش ، فتحمس ، وراح يعظ الفتى الصغير ، ولكنه مالبث أن

لاحظ بعد هنيهات أنه إنما يخاطب نفسه وحدها .. كان بيير يرى اليه مستغرقاً في حديثه وكأنه يقول له :

— لا بأس عليك ، ياصديقي الطيب ! ان كان هذا يرضيك فاستمر فيه ! إني أُصغي إليك ..

باللابتسامة الصغيرة الوقحة ! .. لقد انقلبت الأدوار !...

ولجأ فيليب إلى الصمت مغتاظاً متألماً ، وراح يرقب باهتمام زائد الأخ الصغير الذي لم يعد يُعنى به أو يبالي مطلقاً . لشدّ ماتبدلت طباعه وتغيرت أطواره ! إن الوالدين ، اللذين يريانه يومياً ويعيشان وإياه سوية ، لم يلاحظا شيئاً جديداً في فتاهما أبداً ، ولكن عيني فيليب النافذتين ، والغيورتين بالاضافة ، لم يلقيا ـ بعد غياب عدة أشهر ـ نفس التعبير الذي ألفتاه في المحيا المشوق إليه . كان بيير يبدو سعيداً ، متعباً ، طائشاً ، لامبالياً بالناس ، غير معنيٍّ بالأشياء ، سابحاً في جوٍّ من الحلم اللذيذ فكأنه فتاة في إبانّ الصبا وميعته . وأدرك فيليب أنه لم يعد ، بعد الآن ، شيئاً في فكر الأخ الأصغر .

ولما لم يكن أقل خبرة في تحليل عواطفه منه في مراقبة الآخرين ، فما أسرع ماوعى الغيظ الذي أمّ قلبه فراح يسخر

من نفسه ويهزؤ بها ... وإذ نحّى محبة الذات جانباً ، فقد شرع يعنى ببيير عنايةً خالصة مجردة ، ويبحث عن سر تحوله الجديد الغامض . . لشد ما كان يود أن يستدر اعترافاته ، ولكن تلك مهمة لم يعتد عليها أبداً . أضف إلى ذلك أن الأخ الصغير لم يكن يحتاج ، فيما يبدو ، إلى من يعترف إليه ، فهو يتطلع إلى فيليب الذي يجهد في ابقاعه مرتبكاً حائراً ، وقد كست محياه سيماء اللامبالاة والبلادة ، ويجيب على الأسئلة في غموض وإبهام ، دون أن يعير كثيراً من سمعه إلى مايقال له أو يطلب منه ، وقد دفع يديه في جيبيه ، مبتسماً شارد الفكر ، وشفتاه تصفران لحناً لطيفاً .. ومن ثم ينطلق إلى عالمه الخاص . هكذا على حين غرة ودون سابق إنذار - عموا مساءً ! إنه لم يعد ههنا ، ولم يبق منه إلا انعكاس صورته في المياه التي تفلت من بين الأصابع كلما أطبقت هذه عليها . . وعندئذ يحس فيليب ويقدّر ، مثل عاشق مرذول ، ثمن ذلك القلب الذي ضيّعه ، وهو الآن يعاني جاذبية سره الدفين .

وذات يوم ، جاءه مفتاح السر صدفة . كان في طريق عودته إلى الدار مساء ، عن طريق شارع مونتبارناس ، عندما صادف

بيير ولوس يدبّان في الظل الواقي جنباً إلى جنب . واجتاحه خوف شديد للوهلة الأولى خشية اكتشافهما لوجوده ، ولكنهما لم يكونا يأبهان في الواقع لأي شيء يحيط بهما ، بل هما يسيران بخطى قصيرة ، متلاصقين بشدة ، وبيير يستند بذراعه إلى ذراع لوس ، ويمسك يدها تعانق أصابعه أصابعها ، وقد أفعمت كل من حركاتهما بذلك الحنان الجشع الصادي الذي يغمر إيروس وسيشه المستلقيين على فراش عرسهما في الفارنيزيا[1] ، وعناق نظراتهما يذيبهما ، كالشمع ، في كائن واحد ... واستند فيليب إلى جذع إحدى الأشجار ، وطفق يراقبهما وهما يعبران الطريق ، يتوقفان بين الفينة والفينة ، ثم يتابعان المسير حتى يختفيا في دكنة الليل وعتمته ... وكان قلبه يطفح شفقة على الطفلين الصغيرين ، وهو يفكر :

— لقد ذهبت حياتي ضحية ، فليكن ! ولكن ، ليس من العدل أن تؤخذ هاتان الحياتان أيضاً . لو أستطيع على الأقل أن أتحمل ثمن سعادتهما !

وفي الغداة لاحظ بيير بغموض ، بالرغم من تغافله المتأدب

---

(١) فيللا في روما ، تحوي صوراً من رفائيل .

عن كل مايخفُ به ، وفي الحقيقة ليس بصورة مباشرة بل بعد قليلٍ من التفكير ، اللهجة الودية الحنون التي يخاطبه أخوه بها ، فتطلع إليه ، وقد أفاق قليلاً من غفوته ، ليرى عينيه الطيبتين اللتين لم يرهما له منذ زمن طويل .. كان فيليب ينظر إليه بصراحة عظيمة ، حتى خيل إلى بيير أن تلك النظرة تفحصه وتخترق سره ، فأسرع يغلق عليه الباب في اضطراب . ولكن فيليب ابتسم ، ونهض واقفاً ، وألقى يده على كتفه ، واقترح عليه أن يقوما معاً بنزهة قصيرة . ولم يستطع بيير أن يقاوم الثقة الجديدة الممنوحة له ، فصحبه إلى حديقة اللوكسمبورغ المجاورة . كان الأخ الأكبر قد ترك يده مستندة إلى كتف أصغره ، وكان هذا فخوراً بالوحدة المتجددة فيما بينهما ... وحلت عقدة لسانه ، فانطلقا يتحدثان في حماسة عن قضايا الفكر ، ومطالعاتهما ، وآرائهما في البشر ، وتجربتهما الجديدة ، وبكلمةٍ مختصرة عن كل شيء .. ألهم إلا الموضوع الذي يشغل فكرهما معاً ، فكأن بينهما اتفاقاً سابقاً ينص على السكوت عنه . كانا سعيدين بهذه الألفة فيما بينهما ، التي يرافقها سرٌ لم يعلنا عنه . وكان بيير يسائل نفسه وهو يتحدث :

— ترى ، هل يعرف ؟... ولكن ، كيف يمكنه أن يعرف ؟

ويرى فيليب إليه يثرثر دون انقطاع ، والابتسامة تملو الشفتين منه . وأخيراً توقف بيير في منتصف جملة لم يكملها ...

— ما بالك ؟

— لاشيء ، إني أنظر إليك ، وإني لمسرور .

وتصافحا . . وفي طريق العودة قال فيليب :

— أسعيد أنت ؟

فأومأ بيير برأسه إيجاباً دون أن يفتح فاه ..

— أنت على حق ، ياصديقي ، فالسعادة شيء حسن . خذ نصيبي منها ..

وكيلا يعكر صفو هذه السعادة فقد تفادى ، طوال مدة إقامته في الدار ، الاشارة إلى قرب موعد استدعاء بيير للخدمة ... ولكنه لم يستطع الامتناع ، يوم رحيله ، عن التعبير عن قلقه لرؤية الأخ الصغير عرضةً ، عما قريب ، للمحن التي يعرفها هو كثيراً ويعرف مرارتها . ولكن مخاوفه لم تبعث في العاشق الصغير أكثر من ظل ضئيل بان على المحيا ، ثم أهذب يختفي هارباً . ورفع بيير حاجبيه قليلاً كمن يطرد رؤيا بغيضة ، وقال :

— بخٍ ! ... فيما بعد !... من يعلم ؟

فقال فيليب :

— إننا نعلم ذلك كثيراً .

فقال بيير ، متأثراً من إصرار أخيه :

— ماأعلمه أنا على أية حال هو أني ، عندما أصبح هناك ، فلن أقتل ، أنا ، أبداً ...

فابتسم فيليب بحزنٍ دون أن يعارضه . إنه يعرف جيداً ماتفعل قوة القطيع التي لاترحم في النفوس العاصية ، وفي إرادتها ...

١١

ورجع آذار ، ورجعت معه الأيام الطويلة ، وأولى أناشيد العصافير الطروبة المغرّدة . ولكن لهيب الحرب المشؤوم كان يزداد اتساعاً أيضاً يوماً بعد يوم ، والجوّ محموماً في انتظار الربيع ، وفي انتظار الكارثة ... وكنت تسمع ذلك الهدير الشيطاني يعلو ويزداد ضخامة وشدة ، وأسلحة ملايين الأعداء تتلاحم ، هؤلاء الأعداء المبعثرين منذ شهور وراء حواجز خنادقهم ، على أهبة أن يطفروا من ورائها في كل لحظة مثل موج البحر الزاخر ليجتاحوا كل مايلقون في طريقهم .. وكان ظل الأصوات الرهيبة يسبق الوباء فكأنه يعلن عنه ، فتتردّد إشاعات خيالية وهمية عن غازات سامة ، وزعاف منتشر في الجو الفسيح ، ستنهار كما يقال على

أرجاء البلاد طولاً وعرضاً لتدمّر كل شيء وتفنيه مثل حمم جبل بيله الخانقة[1] . وأخيراً ، فقد كانت زيارات الغوتيين ، المتقاربة أكثر فأكثر ، تحيي بحذق ومعرفة عظيمين عصبية باريس وحالة التوتر فيها .

واستمر بيير ولوس يرفضان أن يعرفا شيئاً مما يحف بهما . ولكن تلك الحمى الخفيفة التي يتنفسانها ، دون درايتهما ، في الهواء الثقيل المفعم بالوعيد والأخطار ، كانت تسعر الشهوة المحضونة في جسديهما الغضّين الرقيقين وتؤجج أوارها . إن ثلاث سنوات من الحرب قد نشرت في نفوس أوروبا حرية أخلاقية تنفذ حتى أكثرها طهارة وعفّة وبراءة . أضف إلى ذلك أن كلا الطفلين كانا بعيدين عن كل إيمان ديني يحميهما من رذائل الحياة ، وإن كانت رقة قلبيهما ، وعفافهما الغريزي ، يصونانهما ويلقيان عليهما ستاراً واقياً . ولكنهما قد قررا سراً ، على أية حال ، أن يعطي كل منهما نفسه للآخر قبل أن تفصل فيما بينهما وحشية

---

(١) أكبر براكين بحر الأدرياتيكي ، ثار في القرن الرابع عشر فأفنى مدينة القديس بطرس التي يشرف عليها .

البشر العمياء وقسوتهم الساحقة . ولم يعرّفا بعضهما على ذلك من قبل ، فأعلنا عنه في تلك الأمسية ..

كانت والدة لوس تضطر للتغيب عن الدار مرة أو مرتين في الأسبوع عندما يحتجزها عمل المصنع ليلاً . وفي مثل تلك الأحوال كانت لوس ترقد عند صديقة لها في باريس ، كي لاتقضي الليل وحيدة في ذلك الحي المقفر النائي . ولم يك ثمة من يراقبها بحيث كان العاشقان يكتسبان هذه الحرية كي يقضيا معاً جزءاً من الليل ، ويتناولا في بعض الأحايين عشاء متواضعاً في أحد المطاعم . وفي ذلك المساء من منتصف آذار ، بينا هما خارجان من المطعم ، دوّت صفارة الانذار ، فأسرعا يحتميان في أقرب ملجاء ، كمن يفرّ من وجه مطرٍ غزير منهمر ، ويتسليان فترة من الزمن بمراقبة الرفاق الذين جمعتهم الصدفة بهم . وإذ خيل إليهما أن الخطر بعيد أو قد أضحى بعيداً ، انفلتا من الملجاء ، دون انتظار الاعلان عن زوال الخطر ، وتابعا الطريق وهما يثرثران في مرح وسرور ، وفي عزمهما ألاّ يتأخرا في العودة إلى الدار تلك العشية ... كانا يسلكان طريقاً قديمة ضيقة قرب سان سولبيس ، وقد تخطيا لتوهما عربة تقف قرب بوابة

كبيرة ، استسلم سائقها وحصانها جميعاً لنوم عميق .. وعندما أصبحا على بعد عشرين خطوة منها ، على الرصيف الآخر ، إذ بكل شيء يرتجف حولهما ، وومض أحمر يخطف الأبصار يملأ الشارع بغتة ، وضوضاء عنيفة كهزيم الرعد الغاضب تجتاح الحي بأسره ، ورذاذ غزير من حجارة منتزعة وزجاج محطم يهطل من السماء مدراراً . وأسرعا يلتصقان بجدار أحد المنازل التي تشكل منعطفاً مباغتاً في الدرب ، وقد تعانق جسداهما ، فشاهدا - في لمعان البرق - عيونهما الطافحة حباً ورعباً . وكان صوت لوس يترجى ، في الليل الذي أرخى سدوله من جديد :

— كلا ! لاأريد ذلك بعد ! ..

وأحسّ بيير على شفتيه الشفتين الشغوفين والأسنان الملتهبة ... وظلا هكذا مرتجفين مرتعشين ، في دكنة الطريق ، وعلى بعد خطوات منهما ، بين أنقاض العربة المحطمة ، رجال خرجوا من المنازل المجاورة يرفعون جثة السائق القتيل ومروا بجوارهما ، والدم يسيل قطرة قطرة من جسد البائس الذي يحملون ... وظل بيير ولوس متصلبين من هول المشهد ، متعانقين بشدة وعنف ، حتى هُدهد لهما ، عندما عاد الشعور إليهما ، أن جسديهما عاريان تحت

وطأة العناق . وحلاً رناق أيديهما وشفاههما الملاحمة التي تجرع ، مثل الجذور المغروسة في التربة ، الكأن المعشوق . وشرع كلاهما يرتعشان .

قالت لوس ، وقد سيطر عليها ذعر عظيم :

— لنرجع إلى الوراء !

وجرّته ...

— لوس ، إنك لن تدعيني أرحل عن هذه الحياة قبل ...؟

فقالت لوس ، وهي تشدّ على ذراعه :

— أواه ! يالهي ! إن تلك الفكرة لأسوأ من الموت !

وقالا في وقت واحد ، يخاطب كل منهما الآخر :

— ياحبّي !

وتوقفا عن المسير من جديد ..

قال بيير :

— متى أكون لك ؟

(ماكان يجرؤ على السؤال : « متى تكونين لي ؟ »)

وفطنت لوس إلى ذلك ، فقالت متأثرة :

— يامعبودي .. عما قريب ! لاتستعجلنا ! ليس في إمكانك أن تريد ذلك أكثر مما أريده أنا ! . فلنبقَ هكذا أيضاً فترة

أخرى ... ذلك رائع وجميل!... هذا الشهر أيضاً ، حتى نهايته!.

قال :

— حتى الفصح ؟

(كان الفصح ، ذلك العام ، يقع في اليوم الأخير من آذار) .

— بلى ، قيامة .

فقال :

— أواه ! إن الموت يسبق القيامة .

فقالت ، وهي تختم فمه بفمها :

— صه !

وتملّصا من بعضهما ...

قال بيير :

— هذا المساء ، إنها خطوبتنا .

وكانا يبكيان حنانا ، وهما يسيران في الظل بهدوء ، معتمدين على بعضهما البعض . وكانت الأرض ، تحت أقدامهما ، تصرّ بالزجاج المحطم ، وبلاط الشارع يدمي . وفيما حول جبهما ، كان يربض الليل والموت جميعاً ؛ ولكن فيما فوق رأسيهما ، إلى الأعلى من كوة الجدارين الأسودين المعانقين الدرب الضيق ،

مثل دائرة سحرية ، أو مدخنة جبارة ، في لبِّ السماء ، كان قلب نجمةٍ يخفق ..

ثم ها إن أصوات الأجراس تغني ، والأنوار تسطع من جديد وتتلألأ ، والطرق تدبُّ الحياة فيها مرة أخرى ! إن الهواء حر من الأعداء ، وباريس تتنفس ، والموت قد هرب !..

* * *

١٢

وهذه عشية أحد الشمانين . إنهما يلتقيان كل يوم طوال ساعات عديدة ، ولا يسعيان إلى الاختفاء عن أعين الناس ، إذ ليس من حساب يقدمانه إلى هذا العالم الذي لا يرتبطان به إلا بخيوط رقيقة جداً على أهبة الانفصام في كل حين ! قبل يومين فقط بدأ الهجوم الألماني الكبير ، وراحت موجته العاتية تجتاح كل شيء على مسافة مائة من الكيلومترات عرضاً ، والمدينة ترتعش أبداً بانفعالات مستمرة ، من انفجارات مستودعات كورنوف التي هزت باريس بأسرها هزاً عنيفاً ، فكأنها زلزال أرضي ، إلى إنذارات الخطر المتلاحقة التي تحطم النوم وترهق الأعصاب ... وفي صباح يوم السبت ذاك ، بعد ليلة مضطربة ، أفاق جميع

الذين لم يغمضوا العين إلا في ساعة متأخرة جداً ، على زمجرة المدفع الخفي الجاثم في البعد يطلق الموت متحسساً ، من وراء نهر السوم ، وكأنه رابض في كوكب آخر ينبعث منه المنية على الأرض ولقد أسرع الناس ، بعد الطلقات الأولى التي عزوها إلى الغوتيين ، فاختبأوا صاغرين مستسلمين في الملاجئ والمخابئ . ولكن خطراً يدوم طويلاً لايلبث أن يصبح عادة تألفها الحياة ، بل لاتبعد عن اكتشاف بعض الجاذبية فيها مادام الخطر مشتركاً بين الجميع ، وليس كبيراً بالاضافة حتى درجة بعيدة . زِدْ على ذلك أن الطقس بديع للغاية ذلك النهار ، ومما يرثى له حقاً أن يدفن المرء نفسه حياً بينما يدعوه كل شيء إلى التمتع بالحياة والاغتراف منها . وهكذا انفلت سائر الناس خارج الدور قبل أن تحين الظهيرة ، ولم تابث الطرقات والحدائق وشرفات المقاهي أن غصّت بهم ، في تلك الأمسية الرائعة البهيجة ، فكأن اليوم يوم عيد عظيم ...

وتلك كانت الأمسية التي اختارها بيير ولوس كي يهربا بعيداً عن ضوضاء البشر ، إلى غابة شافيل الجميلة الفاتنة . إنهما بعيشان ، منذ عشرة أيام ، في سكينة منهلة جذلانة ، وفي

القلب يخيم سلام عميق ، وفي الأعصاب تسري رجفة عنيفة ، يخيل إليهما أنهما يركبان موجاً متدفقاً طحوماً يحفّ به تيار شديد الهياج فيحملهما دوار البصر والسمع ويدور بهما في قوة وشدة عظيمتين . ولكن ، إذا ماهما أسبلا الأجفان ، وسدا الآذان بالأيدي ، وأرتجا الباب بالمزلاج ، ففي أعماق النفس يحلّ إذن السكون ، السكون الذي يبهر الأبصار ، ومعه نهار الصيف الجامد الذي لاحراك به ، حيث الفرح غير المنظور ، المندفق كالجدول رقيقاً رطباً نشيطاً ، يغني أنشودته مثل عصفور مختبئ عن العيون ... إيه أيها الفرح ، أيها المغني السحري ، يازقزقة السعادة ! أنا أعرف جيداً أنه يكفي ، كي يعود زبد النيار وضوضاؤه إلى الدخول ، أن أبعد مابين أجفاني قليلاً ، أو أن أرفع الإصبع هنيهة قصيرة عن أذني المغلقة ... ياللسدّ الهزيل السريع العطب ! ومن معرفتي هزاله الشديد يفوح الفرح أيضاً ، هذا الفرح الذي أعرفه مهدداً في كل لحظة . وعندئذ فان السلام والسكون نفسيهما يتخذان محياً ملتهباً مستعر الأوار ...

وإذ بلغا الغابة أمسكا بيدي بعضهما بعض . إن الأيام الأولى من الربيع لأشبه بخمرة جديدة تتساق الجسد حتى تبلغ الرأس

فتدور به ، والشمس الفتية تسكر بعصير كرمتها الكليّة النقاوة والطهر . وكان النور يرفرف فوق الأشجار المجردة عن الأوراق بعد ، وعين السماء الزرقاء ، من خلال الأغصان العريانة ، تسحر العقل وتلقيه في سبات عميق .. ولم يتبادلا عدة كلمات إلا بصعوبة جمة ، فاللسان يأبى أن يتابع الجملة التي بدأها . وكانت أرجلهما رخوة متعبة لاتسير إلا مكرهة مضطرة ، فيروحان يترنحان ذات اليمين وذات اليسار تحت شمس الغابة وسكونها . وكانت الأرض تجذبهما إليها لو يرقدان على الدرب ، لو يستسلمان إلى قشاط دولاب العوالم الكبير يجرفهما معه !..

وتسلقا منحدر الطريق ، ودخلا دغلاً كثيف الأشجار ، ثم تمددا ، جنباً إلى جنب ، على الأوراق الميتة البارزة من خلالها رؤوس أزهار البنفسج المتفتحة . كانت أناشيد العصافير الأولى ، وهدير المدفع البعيد ، تمتزج مع أجراس القرية المعلنة عن عيد الغداة ، والهواء النير يهتز بالرجاء ، والايمان ، والمحبة ، والموت ... وراحا يتكلمان في صوت مخفوض ، رغم السكون والوحدة المحيطين بهما ، فقد كان قلباهما مرهقين .. بالسعادة ؟ أم بالألم ؟ إنهما لايدريان على وجه التحقيق . وكانا

غارقين في الحلم ، فلوس تحسُّ ، وهي مضطجعة لاحراك بها ، ممتدة الذراعين على طول جسدها ، مفتوحة العينين ، مستغرقة البصر ، تصرو إلى السماء في ثبات وشغف ، تحس عذاباً خفياً يجتاحها أكثر فأكثر ، وهي تسعى عبثاً منذ الصباح كي تطارده عنها وتبعده حتى لايعكر فرحة ذلك النهار وغبطته . وأسند بيير رأسه إلى ركبتي لوس ، في حجر ثوبها ، مثل طفل ينام ووجهه ملتصق بدفء البطن وحرارته ... وكانت لوس ، تداعب بيديها ، دون أن تتكلم ، أذني الحبيب ، وعنقه ، وأنفه ؛ وشفتيه .. إيه أيتها اليدان الروحيتان الحاملتان ، في أطراف الأصابع ، أفواهاً صغيرة كما في قصص الجنيات ! وكان بيير ، مثل مفاتيح بيانٍ ذكي ، يخمن العواطف المارة في نفس الصديقة من تلك الموجات اللطيفة الراكضة تحت الأصابع . وسمعها تتنهد ، قبل أن تتنهد فعلاً . وبغتة ، نهضت لوس بجسدها ، ومالت بكل قامتها إلى الأمام بشدة ، وزمجرت بصوت خفيض ، مبهورة الأنفاس :

— أواه ، يابيير !

فأُخِذَ بيير بصيحتها المفاجئة ، وراح يتطلع إليها مشدوهاً ..

— أواه ، يابيير ! من نحن ؟ .. وماذا يريدون منا ؟.. وماذا

نريد ؟... ماذا يجري في داخلنا ؟. هذا المدفع ، هذه العصافير ، هذه الحرب ، هذا الحب ... هاتان اليدان ، هذا الجسد ، هاتان العينان ... أين أنا الآن ؟... وما كينونتي ؟ ...

وأراد بيير ، وهو لايعرف منها هذا التعبير من الشرود ، أن يأخذها بين ذراعيه ، ولكنها دفعته عنها وهي تقول :

— لا ! لا !

وأخفت وجهها بيديها ، ثم غمرت الوجه واليدين جميعاً في العشب . وراح بيير ، مضطرباً قلقاً ، يتوسل إليها :

— لوس !

واقترب برأسه من رأسها . .

عاد يقول ، بعد برهة :

— لوس ! مابالك ؟ ... أناقة عليّ ؟ . .

فرفعت رأسها ، وقالت :

— كلا !

ورأى دموعاً تترقرق في عينيها ...

— أأنت حزينة ؟

— نعم .

— لمَ ؟

— لاأدري .

— قولي لي ...

فقالت :

— آه ، إني أخجل من ذلك ..

— تخجلين ممَ ؟

— من كل شيء .

وسكتت ...

كانت رؤيا كئيبة ، مرهقة ، كثيرة الإذلال ؛ تعذبها منذ الصباح الباكر ... إن والدتها ، وقد لعبت برأسها تلك السموم المختمرة في خليط العار والاجرام في المصانع ، هذه الدنان البشرية ، لم تعد تحفظ رصانتها المعهودة وسلوكها الحسن ، حتى لقد تخاصمت ، في الدار هذا الصباح ، مع عشيقها بدافع الغيرة الثائرة ، دون أن تأبه لوجود ابنتها السامعة سائر أقوالها . وهكذا عرفت لوس من حديثها أن أمها حامل ، فكان ذلك بالنسبة إليها أشبه بطعنة أصابتها في الصميم ، نال الحبَ رشاشٌ من عارها ، بما فيه حبها لبيير أيضاً . وذلك كان السبب في إعراضها

عن بيير عندما اقترب منها . كانت خجلى من نفسها ومنه .. خجلى منه ؟ يالبيير المسكين !

ولقد بقي بيير هناك ، ذليلاً ، لايجرؤ على الحركة . ولكن ، ماأسرع ما اجتاحها الندم على مابدر منها ، فلم تلبث أن ابتسمت من خلال دموعها . وقالت ، وهي تلقي برأسها على ركبتيه :

— لقد حان دوري !

وكان بيير ، قلقاً بعد ، يضغط على شعرها ، مثلما يمسح المرء على رأس قطة أليفة . وتمتم :

— لوس ، ماذا ألمّ بك ؟ أخبرني !

فأجابت :

— لاشيء . لقد شاهدت أشياء محزنة ..

كان يضمر كثيراً من الاحترام لأسرارها حتى يصر على أسئلته . ولكن لوس تابعت ، بعد لحظة :

— آه ! إن هنالك لحظات ... يخجل المرء فيها من كونه إنساناً .

فانتفض بيير ...

قال :

— بلى .

وبعد برهة صمت ، تابع في صوت خفيض وهو يميل نحوها :

— عفواً !

فهبت لوس واقفة في إعصارٍ عنيف ، وارتمت على عنق بيير ، ورددت :

— عفواً !

وتماسك فوهاهما ...

كان الطفلان في حاجة لتبادل العزاء ، وكانا يفكران ، دون أن يعلنا بصوتٍ مرتفع عما يجول في خاطرهما :

— من حسن الحظ أني سأموت .. فأكثر الأشياء بؤساً صيرورتي واحداً من هؤلاء البشر الذين يفخرون كل الفخر بكونهم بشراً ، وبكونهم يدمرون كل شيء ، ويدنسونه ...

كان كل منهما يغمس أنظاره في عيني الآخر ، والشفاه منهما تلامس الشفاه ، والأهداب تمس الأهداب ، مبتسمين في شفقة حنون . ولم يكونا يتعبان من هذا الاحساس الألمي الذي هو أكثر أشكال الحب طهارة وصفاء . وأخيراً انتزعا نفسيهما من التأمل الغارقين فيه ، فصافحت عينا لوس من جديد ، وقد انقشع

السحاب عنها ، عذوبة السماء والأشجار المبعوثة إلى الحياة ، ونفحة الورود الذكية ...

قالت :

— ما أحلى ذلك !

كانت تفكر :

— لمَ الأشياء جميلة هكذا ؟ ونحن على كل هذه الحقارة ، والغباء ، والقبح ! .. (لو لم تكن أنت ، يا حبي ، لو لم تكن أنت ! ..)

وتطلعت إلى بيير من جديد :

— حقاً ! ماذا يهمني من الآخرين ؟

ولم تلبث ، في عبث الحب الرائع ، أن انفجرت ضاحكة ، وهبت على قدميها بقفزة واحدة ، وأسرعت تعدو عبر الغابة وهي تصيح :

— أمسك بي .

واستمرا يلعبان ، مثل طفلين صغيرين ، بقية النهار ... وعندما أنهكهما التعب ، رجعا بخطىً قصيرة نحو الوادي المفعم ، مثل سلّ كبير ، ببراعم الشمس الغاربة . وكان يبدو لهما غريباً جديداً مستحدثاً كل مايتذوقان بقلب واحد لكليهما ، وبجسدين لقلب واحد ...

١٣

التقوا عند أحدهم ، خمسة أصدقاء من جيلٍ واحد ، خمسة من رفاق الدراسة جمع بينهم ، في عزلة تامة عن الآخرين ، بعض الانسجام في الروح ، وعزم مبدئي على الانتقاء في الأفكار ؛ وإن لم يكن في عدادهم ، بالرغم من ذلك ، اثنان يفكران نفس التفكير . فتحت الاجماع الذي يدعون وجوده بين أربعين مليوناً من الفرنسيين ... أربعون مليوناً من الأدمغة تعمل في وحدة وفراق عن بعضها البعض ، كل في بيته الخاص . إن فكر فرنسا لأشبه مايكون بأرضها ، بلد الملكيات الصغيرة . وكان الأصدقاء الخمسة ، من قطعة أرض إلى الأخرى ، يحاولون أن يتبادلوا آراءهم من فوق الأسوار والسياج ، فلا يفعلون

بذلك إلا أن يؤكد كل منهم ، لنفسه ، أفكاره الخاصة بصورة أكثر حتمية وإطلاقاً من ذي قبل . ولكنهم كانوا جميعاً ، على أية حال ، من ذوي الأفكار الحرة ، وهم إن لم يكونوا جميعاً جمهوريين ، فجميعهم أعداء الرجعية الفكرية أو الاجتماعية ، أعداء العودة إلى الوراء .

كان جاك سه أكثرهم حماسة للحرب وتأييداً . هذا اليهودي الكريم النفس قد اقترن بسائر أهواء فرنسا الفكرية ، مثله في ذلك مثل أبناء عمه الاسرائيليين الذين يقترنون ، في أوروبا بأسرها ، بقضية الوطن الذي تبنّاه وأفكاره . لا بل كانوا يميلون أيضاً إلى المبالغة في ذلك ، كما هي عادتهم في كل ما يتبعون . كان ذلك الفتى الجميل ، ذو الصوت الملتهب الجمهوري ، والنظرة المتأججة الثقيلة قليلاً ، والملامح المنتظمة ، فكأن إطاراً واضح الحدود يحيط بها ، أكثر تأكيداً في معتقداته مما يلزم ، وبالاضافة إلى ذلك عنيداً جداً في الخلاف والمعارضة . كان يرى أن واجب الديمقراطيات أن تقوم بصليبية واسعة النطاق في سبيل خلاص الشعوب وقتل الحرب . إن أربع سنوات من الذبح في سبيل محبة الانسانية لم تقنعه بعبث إيمانه . كان واحداً من أولئك

الذين لايقبلون قط بتكذيب الوقائع لهم ، ففي صميم قلبه كبرياء مضاعف ، كبرياء الجنس الذي يريد أن يردّ إليه اعتباره المفقود ، وكبرياءه الشخصية التي تريد أن تكون على صواب وحق دوماً . وكانت تلك الإرادة تتضاعف وتزداد بمقدار ماتنقص ثقته وتتضاءل ، فمثاليته المخلصة ليست في الواقع إلا ستاراً يقنع غرائز قاهرة مضى عليها زمن طويل وهي مكبوتة مخنوقة ، ستاراً يقنع حاجة ملحّة إلى العمل والمغامرة ، حاجة لم تك بأقل إخلاصاً على أية حال ..

ولقد كان أنطوان نوديه ، بدوره ، متشيعاً للحرب ، يدفعه إلى ذلك عجزه عن أن يفعل شيئاً آخر . إن هذا الفتى البورجوازي الضخم الجثة ، المضرّج الوجنتين ، الرقيق الشمل والأخلاق ، القصير النفَس ، الذي يدحرج الراء بلطافة أهالي مقاطعات الوسط ، ليتأمل بابتسامة هادئة حماسة الصديق سِه البليغة ، أو أنه يدفع به ، عندما تسنح الفرصة ، بكلمة مهملة يلقيها في لامبالاة تامة ، كي يتسلق حتى القمة ، دون أن يسعى - هو الكسول - إلى اللحاق به . . ماجدوى الحمية مع الأمور التي لا تتعلق بنا أو ضدها ؟ نحن لانلقى نزاع الواجب والهوى ، هذا

النزاع البطولي والثرثار معاً ، إلا في المآسي التمثيلية وحدها . وعندما لايجد المرءُ سبيلاً إلى الاختيار ، فانه يقوم إذن بواجبه دون كلام فارغ ، وهذا الواجب ليس بأقل بهجة على أية حال ! لم يكن نوديه يعجب ، ولا كان يعاتب أو يلوم ... لقد كان الحسّ السليم يحدثه أن القطار إذا أنطلق مرة ، وتحركت الحرب ، فلا بدّ من الدوران معها إذن ... ليس من سبيل آخر على الاطلاق . أما التنقيب عن المسؤوليات ، فذلك عبث ومضيعة للوقت ليس غير .. عندما أُضطر إلى القتال ، فلا بدّ أن أتعثر إذا عرفت أنه كان باستطاعتي ألا أقاتل لو أن الأمور كانت ... ماليست هي عليه !

المسؤوليات ! إنها ، بالنسبة إلى برنار سيسه ، القضية الرئيسية . إنه يحاول ، في عناد ، أن يحلّ هذه العقدة من الأفاعي ، أو أنه بالأحرى يلوح بتلك الأفاعي فوق رأسه مثل إحدى آلهة الجحيم ! هذا الصبي الناحل ، الذكي ، الملتهب ، الكثير العصبية ، المحترق بحساسية دماغية متأججة السعير ، إن البورجوازية المثرية ، وسليل عائلة جمهورية عريقة ساهمت في تحمل أعباء أكثر سلطات الدولة رفعاً وأهمية ، هذا الصبي يبشر ، كرد فعل لذلك كله ، بأهواء فوق ثورية . لقد شاهد ، عن قرب ، سادة

اليوم وعقابيلهم ، فهو يتهم سائر الحكومات ويجرّمها ، وحكومته بصورة خاصة ، ولا يتحدث إلا عن النقابيين والبلاشفة ... لقد اكتشفهم حديثاً ، فراح يتآخى معهم كأنه على صلة بهم منذ طفولته . لم يكن يجد الدواء إلا في انقلاب شامل للمجتمع بأسره ، دون أن يستطيع تعيين نوع ذلك الانقلاب وماهيته إنه يكره الحرب ، ولكنه على استعداد لأن يضحي بنفسه ، مغتبطاً ، في حرب تقوم بين الطبقات ... حرب ضد طبقته ، حرب ضده ، هو نفسه ..

وكان كلود بوجه ، رابع الجماعة ، يشاهد هذا البراز الكلامي بانتباه بارد فيه شيء من الازدراء . كان هذا الفتى المعدم ، وهو سليل بورجوازية مغرقة في الصغر ، انتزع من مقاطعته من قبل مفتش معارف لاحظ ذكاءه أثناء إحدى جولاته التفتيشية ، وحرم في وقت مبكر جداً من حياة العائلة الأليفة ليرتمي في أحضان العاصمة مبعوثاً يتلقى العلم مجاناً ، كان هذا الفتى قد اعتاد ألا يعتمد إلا على نفسه ، وألا يعيش إلا مع نفسه ، فهو الآن أيضاً لا يحيا إلا من ذاته وفي سبيل ذاته ... لم يكن ، وهو الفيلسوف الأناني ، المنهمك في تحاليل النفس ، الغارق بلذة

وغبطة عظيمتين في تفحص باطنه مثل قطة منكورة في طابة كبيرة ، ليتأثر بانفعالات الآخرين أو يعنى باهتماماتهم . وهؤلاء الأصدقاء الثلاثة الذين لايتوصلون إلى التفاهم فيما بينهم ، كان يضعهم في كيس واحد ... مع « الرعاع » . أفلا يحط ثلاثتهم من قيمة أنفسهم عندما يريدون أن يقاسموا الجماهير عواطفها ؟ وفي الحقيقة إن الجماهير تختلف بالنسبة إلى كل واحد منهم . ولكن الجماهير ، مهما تكن ، مخطئة دوماً وعلى ضلال بالنسبة إليه ، هو بوجه ... إن الجماهير هي العدو المدود ... ينبغي على الفكر أن يظل وحيداً ، وأن يتبع قوانينه فقط ، ويؤسس - في عزلة عن العامة وعن الدولة - مملكة الفكر الصغيرة المغلقة .

أما بيير فكان ينظر ، وهو جالس قرب النافذة ، إلى الفضاء في شرود ... ويحلم . كان ينخرط عادة ، بحماسة ، في تلك الخملات الفتية ، أما الآن فهي عنده دوي كلمات عديمة الجدوى يصغي إليها من بعيد ، من بعيد جداً ، في خمول وخدر ضجرين ساخرين . ولم ينتبه الآخرون ، المستغرقون في مناقشاتهم الحامية ، إلى سكوته إلا بعد فترة طويلة . وأخيراً التفت إليه سيسه ، وقد اعتاد أن يجد فيه دوماً صدى لبلشفيته اللفظية ، وناداه بعد أن

دهش من إعراضه عن الادلاء برأيه .

فانتفض بيير ، وقد أوقظ بغتة من حلمه ، وتضرّج وجهه ، ثم ابتسم وقال :

— عمّ تتحدثون ؟

فشمل الاستياء الجميع على حد سواء ...

— ولكن ، أفلم تسمع شيئاً أبداً ؟

وسأله نوديه :

— فيمَ كنت تفكر إذن ؟

فأجاب بيير ، في شيء قليل من الاصطراب ، وشيء قليل من المجون :

— في الربيع ! لقد رجع دون إذن منكم ، ولسوف يذهب دوننا أيضاً ...

وسحقه الجميع باحتقارهم وازدرائهم . نعته نوديه « بالشاعر » ، أما جاك سهْ فوصفه « بالمدّعي » .

وكان بوجه الوحيد الذي راح يرمقه في شيء من الفضول والسخرية بعينيه المجمدتين الباردتي الحدقتين . قال :

— أيتها النملة الطائرة !

فقال بيير ، مسروراً :

— ماذا ؟

وقال بوجه :

— ألا فاحذر جناحيك . إنه الطيران الرسمي ، وهو لا يدوم إلا ساعة فقط ..

فأجاب بيير :

— إن الحياة لا تدوم أكثر ...

* * *

١٤

في ذلك الأسبوع من الآلام ، كانا يلتقيان يومياً ... يسعى بيير إليها في دارها المنعزلة حيث تستيقظ الحديقة الصغيرة ، فيقضيان فيها جلّ الوقت بعد الظهيرة . إنهما لينفران الآن من باريس ، من الناس ، من الحياة ، لا بل إن شللاً أخلاقياً يجتاحهما في بعض الأحايين ، فيطبق عليهما سكون شامل ، يظلان أثناءه جامدين لا حراك بهما ، إلى جانب بعضهما البعض ، دونما أدنى رغبة في الحركة أو الكلام . إن إحساساً غريباً يغذيهما معاً ، وخوفاً عظيماً يتملكهما ... خوفاً يتفاقم بمقدار ما يقترب ذلك اليوم الذي سيهبان فيه نفسيهما كلٌ للآخر ... خوفاً بفرط المحبة ، بعملية تنقية للنفس التي ترهبها بشاعات الحياة وقسوتها وعارها ،

والتي تروح تحلم ، في سكرة من الهوى والكآبه ، بالخلاص والافلات مما يرهبها . ولم يكونا يتحدثان عن ذلك أبداً ...

كان جل وقتهما ينقضي في ثرثرة عذبة عن مسكنهما المقبل ، وعن عملهما المشترك ، وعن عش الزوجية الصغير الذي سيعمرانه . كانا يرتبان سلفاً حتى أدق تفاصيل إقامتهما ، ويعنيان بتعيين مكان الأثاث وموضع الأوراق ومحل كل شيء آخر . وكانت لوس ، مثل امرأة حقيقية ناضجة ، تتأثر من هذه التخيلات ، هذه الصور العائلية عن الحياة اليومية ، حتى درجة البكاء ! كانا يتذوقان منذ الآن الأفراح اللذيذة اللطيفة التي سيحملها إليهما العش المقبل ... وكانا يعرفان أن شيئاً من كل ذلك لن يكون . بيير باحساس من التشاؤم الطبيعي فيه ... ولوس بإدراك غير حنون يدري استحالة الزواج العملية ... ولذا كانا يعجلان في تذوقه ، في الحلم على الأقل ... وكان كل يخفي عن الآخر يقينه بأن ذلك ليس إلا مجرد أضغاث أحلام فقط ، وهو يعتقد أنه يملك السر وحده ، فيسهر ، حنوناً ، على أوهام الآخر الجميلة .

وإذا ما استنفدا لذات المستقبل المستحيل المؤلمة ، أخذهما الاعياء ، فكأنهما قد عاشاه حقاً وفعلاً ... وعندئذ كانا

يستريحان ، جلوساً تحت العرائش اليابسة التي تذيب الشمس نسغها المتجمد ، ويروحان يصيخان ، ورأس بيير مستند إلى كتف لوس ، إلى دوي الأرض وهما يحلمان .. إن شمس آذار الفتية تلعب من وراء السحب الراكضة عبر السماء ، تضحك تارة وتتوارى تارة ، فتمتد على سطح الأرض إما أشعة نيرة حيناً ، وإما ظلال قاتمة حيناً آخر ، مثلما يمتد في النفس الفرح والألم واحداً تلو الآخر .

وقال بيير ، على حين غرة :

— لوس! أفلست تذكرين ؟ .. لقد مضى على ذلك زمن طويل ، طويل جداً ... وفيما سبق ، لقد كنا هكذا ...

فقالت لوس :

— بلى ، ذلك صحيح كل شيء ، إني أتعرف على كل شيء ... ولكن أين كنا إذن ؟

ويروحان بتسليان في البحث عن الأشكال التي تعرفا على بعضهما بعض بها . أكانا إنسانين في ذلك الحين ؟ ربما ! ولكن بيير كان الفتاة يومذاك بكل تأكيد ، ولوس كانت العاشق الولهان .. أكانا عصفورين في الفضاء ؟ عندما كانت طفلة بعد ،

كانت أم لوس تقول لها إنها أوزة صغيرة متوحشة سقطت من من المدخنة ... آه ! لقد كسرت جناحيها فقط من جراء ذلك السقوط ! ولشد ما كانا يبتهجان ، بصورة خاصة ، بأن يلقيا نفسيهما في الأشكال السائلة البريئة التي تتداخل ، وتتمازج ، وتسيل مثل لوالب الحلم ، أو حلقات الدخان المتصاعد بالأحرى .. سحباً بيضاً تذوب في بعضها البعض في هاوية السماء ، أو أمواجاً صغيرة تمرح غيثاً على الأرض ، أو ندى على العشب ، أو حبات هنداء تسبح مع تيار الهواء . . ولكن الهواء يجرفها . لو أنه لا يهب من جديد فقط ، ولا نضيع نحن عن بعضنا بعض حتى الأبد !

ولكنه قال :

— أنا أعتقد أننا لم نفترق قط . لقد كنا سوية ، مثلما نحن الآن ، متمددين بجانب بعضنا البعض . ولكنا كنا نرقد فقط ، وكنا نحلم . ومن حين لآخر نستيقظ . لا نكاد نفعل ذلك بالأحرى . فأحس أنفاسك ، وأحس خدك ملتصقاً بخدي ونبذل جهداً كبيراً حتى يتقارب فمانا .. ثم نعود فنستغرق في سباتنا .. حبيبتي ، ياحبيبتي ، إني هنا ، إني أمسك بيدك ، فلا تفلتيني ! الآن ، إنها ليست الساعة تماماً بعد ، فالربيع يكاد ألا يرينا طرف أنفه المتجمد ...

فقالت لوس :

— مثل أنفك ...

— عما قريب ، سوف نستيقظ في يوم صائف بديع .

فقالت لوس :

— سوف تكون اليوم الصائف البديع ...

— . . . وظل الزيزفون الدافئ ، والشمس بين الأغصان ، والنحل الذي يغني ...

— . . . وشجرة الخوخ المعرّشة على الجدار ، ولحمها المعطر ...

— . . . وقيلولة الحاصدين ، وسنابلهم المذهبة ...

— . . . والقطعان الكسولة التي تجترّ حقلها ...

— . . . والمساء ، عند الغروب ، مثل مستنقع مزدهر ، والنور السائل الذي يمدو ، فوق الحقول الجرداء ..

وقالت لوس :

— سوف نكون كل شيء ، كل ماسيكون عذباً كي نراه وكي نلمسه ، كي نقبله وكي نأكله ، كي نلمسه وكي نتنفسه ..

وأضافت ، وهي تشير إلى المدينة ودخانها :

— أما الباقي ، فاننا نتركه لهم .

وضحكت ، ثم قالت وهي تقبل صديقها :

— لقد أنشدنا حسناً أغنيتنا المزدوجة ، أليس كذلك ياصديقي بيير و ؟

فقال :

— بلى ، ياجيسيكا .

فعادت تقول :

— ياعزيزي بيير و المسكين ، إننا لم نُجعل من أجل هذا العالم حيث لايعرف الناس أن ينشدوا جيداً غير المارسيليز !

فقال بيير :

— لو أنهم يعرفون كيف ينشدونها ايضاً !

— لقد أخطأنا المحطة ، فهبطنا باكراً جداً .

فقال بيير :

— إني أخاف أن تكون المحطة التالية أسوأ أيضاً . أفلست تتصورين حالنا ، ياحبيبتي ، في المجتمع المقبل ، في الخلية التي يعدوننا بها ، حيث لايحق لأيٍّ كان أن يعيش إلا في سبيل النحلة الملكة ، أو في سبيل الجمهورية ؟

فقالت لوس :

– أن نبيض منذ الصباح حتى المساء ، مثل بندقية رشاشة ، أو منذ الصباح حتى المساء نلحس بيوض الآخرين ... شكراً من أجل حق الاختيار !

فقال بيير ضاحكاً :

– آه ، يالوس ، أيتها الخبيثة الصغيرة ، ماأبشع أسلوبك في الكلام !

– بلى ، إن ذلك شرّ عظيم ، أنا أعرف ذلك . إني لاأصلح لشيء ، ولا أنت أيضاً ، ياصديقي . إنك لم تجعل كي تقتل البشر أو تشوههم في الحرب ، كما إني لم أجعل كي أرفأهم ، مثل تلك الجياد البائسة التي يعنون بها عندما تنحر أعطافها في سباق الثيران ، كي تصلح للصراع المقبل .. نحن كائنان عديما الجدوى ، خطران ، نلوّح بالادعاء السخيف ، المجرم ، إدّعاء حقنا في ألاّ نعيش إلا لكي نحب أولئك الذين نحب .. عاشقي الصغير ، أصدقائي ، الناس الطيبين ، الأطفال الصغار ، نور النهار الرائع ، وكذلك الخبز الأبيض الجيد ، وكل ماهو حسن لذيذ إذا وضعته بين أسناني . ذلك مخجل ، ذلك مخجل ! احمرّ من أجلي ، يابيير و !.. ولكن عقابنا سيكون صارماً ! لن يكون لنا مكان في مصنع

الدولة ، الخيالي من الراحة والشفقة ، الصائرة الأرض إليه عما قريب .. من حسن الحظ أننا لن نكون هناك عندئذ !

وقال بيير :

— بلى ، يالسعادة ..

أودّع دُنياي ذات عشيّهْ وأترك روحي بين يديكِ
وأفرحُ حين ألاقي المنيّهْ وحين أذوب على شفتيكِ

— حسناً ، ياحبيبي اللطيف ، مامعنى هذا ؟

فقال بيير :

— ولكن هذه المقطوعة فرنسيه صميمة . إنها من رونسار .

أنا لاأريد على الأرض شيئا أودُّ أعيش بدون مَلامْ
فألمحُ طيفك في ناظريا يظلُّ يغرّدُ مائة عامْ !

فتنهدت لوس ، وهي تقول :

— مائة سنة ! إنه ليس متزمتاً !..

ففي الموت بهجة قلبٍ ثرٍ وفيه غناءٌ ، وفيه هناءْ .
يفوق سعادةَ إسكندرٍ وما كان يملكه من إباءْ

— أيها الخبيث ، أيها الخبيث ، أيها الصغير العزيز الخبيث ، أفلست تخجل ؟ أبطالٌ في هذا الزمن !

فقال بيير :

– إنهم كثرة . إني أفضل أن أكون صبياً صغيراً يحبُّ ، شيئاً قليلاً من الرجل .

فقالت لوس ، وهي تعانقه :

– قليلاً من المرأة ، مايزال في شفتيه حليب ثديي . ياصغيري !

* * *

١٥

إن أحياء تلك الأيام الذين شاهدوا من بعدها انحراف الحظ الباهر ، سوف ينسون سراعاً من دون ريب تحليق الجناح القاتم ، الثقيل ، المتوعد ، الذي غطى في ذلك الأسبوع فرنسا الوسطى ولم يوفّر باريس بل مسّها بظله الكثيف أيضاً . إن الفرح لا يأبه كثيراً للتجارب السابقة مهما كانت قاسية صعبة ... لقد بلغ الفيض الألماني الأوج بين يوم الاثنين المقدس ويوم الأربعاء المقدس ، فاجتاز نهر السوم ، وانتزع مدن بابوم ، ونيسل وغيسكار ، ورواي ، وفوايون ، وألبير ، واستولى على إحدى عشرة مائة من المدافع ، وستين ألفاً من الأسرى ... وفي يوم الثلاثاء المقدس مات ديبوسي الرقيق ، رمزاً لأرض النعمة الموطوءة

بالأقدام . إنه القيثارة التي تتحطم .. « أيتها اليونان المسكينة التي تلفظ النفس الأخير ! »... ماذا سيبقى منه ؟ بعض قطع من الطين منحوتة ، وبعض أنصاب من الحجارة كاملة الصنع لن يلبث العشب أن يجتاحها من طريق القبور ، بقايا خالدة من أثينا المهدمة ...

وكان بيير ولوس يشاهدان ، كما لو من أكمة عالية ، الظل القادم على المدينة ، فينتظران ، وهما مكسوان بعد بأشعة حبهما ، نهاية النهار القصير دون وجل أو رهبة . لسوف يكونان اثنين ، الآن ، في الليل البهيم ... ومثل ناقوس صلاة المساء ، كانت الكآبة اللذيذة التي تبعثها ألحان ديبوسي الجميلة ، ديبوسي الذي أحباه كثيراً ، تتصاعد نحوهما تبعثها أوتار الذكرى . إن الموسيقى تتجاوب مع حاجات قلبيهما أكثر مما فعلته في أي وقت مضى . كانت الصوت الوحيد الذي يعبّر ، وراء ستار الأشكال ، عن النفس المتحررة من قيودها ..

وفي يوم الخميس المقدس كانا ينطلقان ، ولوس متعلقة بذراع بيير ، وبيير ممسك بيد لوس ، عبر دروب الضاحية ، يغرقهما الغيث الغزير . وكانت نفحات من الريح تمر فوق السهول المبللة ،

فلا يلاحظان شيئاً من المطر ، أو الريح ، أو قباحة الحقول ، أو الطريق الموحلة .. وجلسا على حائط حديقة واطئ ، انهار جزء منه حديثاً ، وراحت لوس ، تحت مظلة بيير التي لاتكاد تحمي الرأس والكتفين إلا بصعوبة جمة ، ترى إلى المياه وهي تقطر تباعاً ، وقد تدلى ساقاها ، وتبللت يداها وحذاؤها ، وراح رشاش من القطرات يرسل أصواتاً متداخلة كلما تحركت الأغصان بنسمة من الريح تهب من إحدى الجهات .. وكانت لوس معتصمة بالصمت ، باسمة ، هادئة ، متألقة . إن فرحاً عميقاً يغمرهما معاً .

قال بيير :

— لم نحب بعضنا بكل هذا المقدار ؟

— أواه ! يابيير ، إنك لاتحبني كثيراً إن كنت تسأل السبب في ذلك .

فقال بيير :

— إني أسألك ذلك حتى أدفعك إلى الاعتراف بما أعرفه على قدر معرفتك أنت به أيضاً .

فقالت لوس :

— تريد أن أرفع إليك التهاني ، ولكنك مخطئ في ذلك جداً .

فاذا كنت أنت تعرف لماذا أحبك ، فأنا لا أعرف ذلك .

فقال بيير مذعوراً :

— أنت لاتعرفين ذلك ؟

— لا ! (كانت تضحك خفية) . ولست في حاجة أبداً إلى معرفته أيضاً . ذلك أن المرء عندما يسأل السبب في أمر ما ليس على يقين تام منه ، فلأن ذلك الأمر ليس حسناً .. وفي الوقت الراهن ، مادمت أحب ، فليس من حاجة إلى لماذا ! وليس من حاجة إلى من أين ، ومنذ متى ، وكيف ولأن ! إن حبي كائن ، إن حبي كائن والباقي موجود إن أرضاه ذلك .

وتعانق وجهاهما ، فاكتسب المطر تلك الفرصة كي يتسلل من تحت المظلة المنحرفة ، ويمسح بأصابعه على شعورهما ووجنتيهما . وشربا من بين شفاههما قطرة صغيرة باردة .

قال بيير :

— ولكن الآخرين ؟

فقالت لوس :

— أي آخرين ؟

فأجاب بيير :

— البائسون . كل من ليسوا نحن ؟

— فليفعلوا مثلنا ! فليحبّوا !

— وإن يحظوا بالحب ، يالوس ، ذلك مالا يستطيعه كل الناس .

— ولكن بلى !

— ولكن لا ! إنك لاتعرفين ثمن الهبة التي منحتني إياها ...

— أن يعطي المرء قلبه للحب ، وشفتيه للمحبوب ، ذلك أن يعطي عينيه للنور ... ذلك ليس إعطاءً ، بل أخذاً !

— هناك عميان .

— إننا لن نشفيهم ، يابيير ! فلنبصر من أجلهم !

وظل بيير صامتاً ...

قالت لوس :

— فيم تفكر ؟

— أفكر أن ذلك الذي أتى إلى هذا العالم كي يشفي العميان قد تألم في مثل هذا اليوم ، بعيداً جداً عنا ، قريباً جداً منا ...

فتناولت لوس يده :

— هل تؤمن به ؟

— لا ، يالوس ، لست أؤمن أبداً . ولكنه يظل دوماً صديقاً

لأولئك الذين استقبلهم مرة على مائدته . وأنت ، هل تعرفينه ؟

فأجابت لوس :

— بالكاد . إنهم لم يحدثوني عنه مطلقاً ... ولكنني ، دون أن أعرفه ، أحبه ... أني أعرف أنه كان يحب .

— ليس مثلنا .

— لمَ لا ؟ نحن ، إن لنا قلباً صغيراً مسكيناً لا يعرف أن يحب إلا كَ ، يا حبي . أما هو ، فقد كان يحبنا جميعاً . ولكنه دوماً الحب نفسه ...

فسأل بيير ، منفعلاً :

— هل تريدين أن نذهب غداً لنشهد الاحتفال بموته ؟ ... لقد قيل لي إنهم يعزفون موسيقى رائعة في سان جرفيه !..

— نعم . لا أحب كثيراً أن أذهب برفقتك إلى الكنيسة ذلك اليوم . لسوف يكون استقباله لنا حسناً ، إني على يقين من ذلك . إذ نكون أكثر قرباً إليه ، نصير أكثر قرباً من بعضنا البعض ..

وسكتا ... المطر ، المطر ... إن المطر يهطل ، والمساء يهطل أيضاً ...

قالت :

– في مثل هذه الساعة، غداً، لسوف نكون هناك ...

وابتدأ الضباب ينفذ ، فاجتاحتها قشعريرة صغيرة ...

سأل ، قلقاً :

– ياحبيبتي ، هل بردتِ ؟

فنهضت :

– كلا ، كلا ! إن كل شيء محبة بالنسبة إليّ . إني أحب كل شيء ، وكل شيء يحبني . إن المطر يحبني ، والريح تحبني ، والسماء الرمادية والبرد .. ومحبوبي الصغير أيضاً ..

١٦

ظلت السماء مغمورة، يوم الجمعة المقدسة، بأستارها الفضفاضة الرمادية، لكن الجو كان عذباً هادئاً. وكنت ترى في الطريق، في كل مكان، وروداً، ونرجساً، وقرنفلاً، تناول بيير باقة منها احتفظت لوس بها في يدها.. وسلكا طريق أورفيفر الساكن، ومرّا عند أسفل درجات نوتردام الطاهرة. كان سحر المدينة، المرتدية نوراً كتوماً، يطوقهما بعذوبته النبيلة... وعندما بلغا ساحة سان جرفيه، طارت بعض الحمامات عند أقدامهما، فتابعاها باليصر وهي تحلق حول مقدمة الكنيسة... هذه إحداها تحط

على رأس أحد التماثيل القائمة في الساحة الواسعة . وعند قمة سلم فناء الكنيسة ، بينما هما يتأهبان للدخول ، التفتت لوس فرأت ، على بعد خطوات قليلة منها ، وسط الجمهور المحتشد ، بنية صغيرة حمراء الشعر ، تبلغ الثانية عشرة من العمر ، قد استندت إلى البوابة الكبيرة ورفعت ذراعيها فوق رأسها وراحت تتطلع إليها بثبات ولهفة .. كان محياها دقيق الملامح ، أشبه بمحيا إحدى تماثيل الكاتدرائية القديمة ، تطوف فيه ابتسامة حلوة ، لطيفة ، لعوبة ، عذبة ، مفعمة بالألغاز . وابتسمت لوس لها أيضاً ، وهي تدلف بيير عليها ، ولكن نظرة البنية كانت تمر من فوقها ، ثم جفلت بغتة واضطربت وامتلأت رعباً .. وتوارت الصغيرة ، وهي تخفي وجهها بين يديها ...

سألت لوس :

— مابالها ؟

ولكن بيير لم ينظر إليها ...

ودخلا الكنيسة كان الحمام ، فوق رأسيهما ، يسجع في عذوبة ، إنه آخر مابقي من ضوضاء الخارج . وراحت أصداء باريس تنطفئ ، والهواء الحر يتلاشى ، كي تفصلهما ألحان الأرغن ،

والقبب العظيمة ، وجدار الحجارة والأصوات عن العالم وكل مافيه .

وجلسا في إحدى زوايا الكنيسة ، بين المصلى الثاني والثالث ، إلى اليسار من المدخل . وربض كلاهما ، في ركن أحد العواميد ، جلوساً على السلالم ، بعيداً عن بقية الحاضرين ، وقد أدارا الظهر إلى الجوقة ، ورفعا الأعين يتطلعان إلى قمة مذبح مصلى جانبي وصليبه وزجاجه ، يطل عليهما من علٍ . . وكانت التراتيل الجميلة العريقة تبكي كآبتها التعبدية ، أما الوتيان الصغيران فتماسكان بالأيدي ، أمام الصديق الكبير ، في الكنيسة المتوشحة بالحداد .

وكان كل منهما يتمتم ، بصوت مخفوض ، في وقت واحد :

— أمامك أيها الصديق الكبير ، إني آخذه ، إني آخذها . يجمع بيننا ! أنت ترى قلبينا .

وظلت أصابعهما مترابطة ، مشبوكة معاً مثل قش السلة الصغيرة كانا جسداً واحداً تجتازه أمواج الموسيقى باهتزازاتها وعرواتها . وراحا يحلمان ، وكأنهما في فراش واحد .

ورأت لوس ، في فكرها ، البنية الحمراء الشعر ، فخيل إليها على حين غرة أنها قد شاهدتها في الليلة المنصرمة في الحلم . ولم تستطع أن تعرف إن كان ذلك صحيحاً حقاً ، أم أنها تسقط

رؤياها الحاضرة على سبات الأمس . ومن ثم استسلم فكرها إلى التحليق في الأجواء البعيدة ، وقد أتعبه الجهد المبذول في سبيل الذكرى .

وكان بيير يفكر في الأيام التي انقضت من حياته المقتضبة ، مثله في ذلك مثل القبّرة التي ترتفع من السهل المغمور بالضباب كي تبحث عن الشمس . . ما أبعدها ! ما أشدّ ارتفاعها ! هل سيضل إليها يوماً ؟ إن الضباب يزداد كثافة ، ولم تعد هناك أرض ، ولم تعد هناك سموات ، وإذا بالقوى تتحطم .. وعلى حين فجأة ، بينما كان اللحن الغريغوري يسيل تحت قبة الجوقة ، اذ بالنشيد المتهال ينبثق ، فيطفو في الظلال جسد القبّرة الصغير المرتجف ، ويروح يسبح على سطح بحر الشمس العديم الشطئان ..

وذكّرتهما حركة من أصابعهما أنهما يطوفان سوية وهاهما يلتقيان من جديد في ظل الكنيسة ، ملتصقين بشدة ، يصغيان إلى الأناشيد الحلوة . إن قلبيهما ، الذائبين محبة ، ليبلغان قمم الفرح ، الأكثر نقاءً وصفاءً ، فيروح كلاهما ، بحرارة ، يتمنيان ـ يصليان ـ ألا يهبطا من هنالك أبداً .

وفي هذه اللحظة شاهدت لوس ، وقد قبّلت رفيقها الصغير

العزيز بنظرة ملتهبة ألقتها عليه (كان يبدو ، وعيناه نصف مغمضتين ، وشفتاه منفرجتان بحلاوة ، ضائعاً في إشراق من السعادة ، يرفع رأسه ، في انطلاق من الفرح المفعم امتناناً وعرفاناً بالجميل ، نحو تلك القوة العليا التي يفتش عنها ، بصورة غريزية ، في العلاء) . شاهدت لوس ، مدهوشة ، في زجاج المصلى الأحمر والمذهب ، وجه البذية الحمراء الشعر التي رأتها في الفناء وهي تبتسم ... وبينما هي تتطلع إليها ، خرساء ، متجمدة من الذهول ، رأت من جديد ، على المحيا الغريب ، نفس ذلك التعبير من الرعب والاشفاق .

وفي ذات اللحظة ، تحرك العمود الضخم الذي كانا يستندان إليه ، وارتجفت الكنيسة بأسرها ، حتى أكثر أسسها عمقاً ، وإذا بلوس ترتمي ، وضربات قلبها تخنق فيها ضجيج الانفجار وصوضاء صيحات الناس ، قبل أن تجد الوقت كي تخاف ، أو كي تتألم ؛ ترتمي ، كي تغطيه بجسدها ، مثلما تفعل الدجاجة لصغارها ، على بيير الذي يبتسم سعيداً ، مغمض العينين .. وبحركة أمومية ضمت ، بكل قواها ، الرأس الحبيب على صدرها ، ثم

انحنت عليه ، وفمها ملتصق برقبته ، كي ينكمشا ما استطاعا الى ذلك سبيلاً ...

وهذا العمود الضخم ، دفعة واحدة ، ينهار عليهما ..

آب ١٩١٨

* * *

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر

تقدم الى قرائها قريبا

روائع

من

الأدب السوفييتي

باقة مختارة من قصص تولستوي ، اهرنبورغ ، سيمونوف ، جورباتوف ، شولوخوف ، بوستوفسكي ، بوليفوي ، جايدار ، كازاكيفيتش ...

« أدب جديد يمثل إنساناً جديداً في بلاد جديدة »

اطلبوا منشوراتنا من كافة المكتبات في أرجاء العالم العربي

دار اليقظة العربية للتأليف والترجمة والنشر بسورية

تقدم في

سلسلة عيون الأدب العالمي

المؤلفات الكاملة

للكاتب الروسي الكبير

أنطون تشيخوف

صدرت منها المجموعة الثانية

المنزل ذو الجناح المتوسط

عود الثقاب السوبري . .

صاحبة الكلب الصغير . .

فولوديا . . . . . .

كاشتانكا . . . . . .

الجنادب . . . . . .

القبلة . . . . . .

ذكريات . . . . . .

عبث بريء . . . . . .

الطبيب . . . . . .

بزة الرئيس . . . . . .

الحذاء وقوة الجهيم . .

الثأر . . . . . .

خلوه . . . . . .

الحذاء . . . . . .

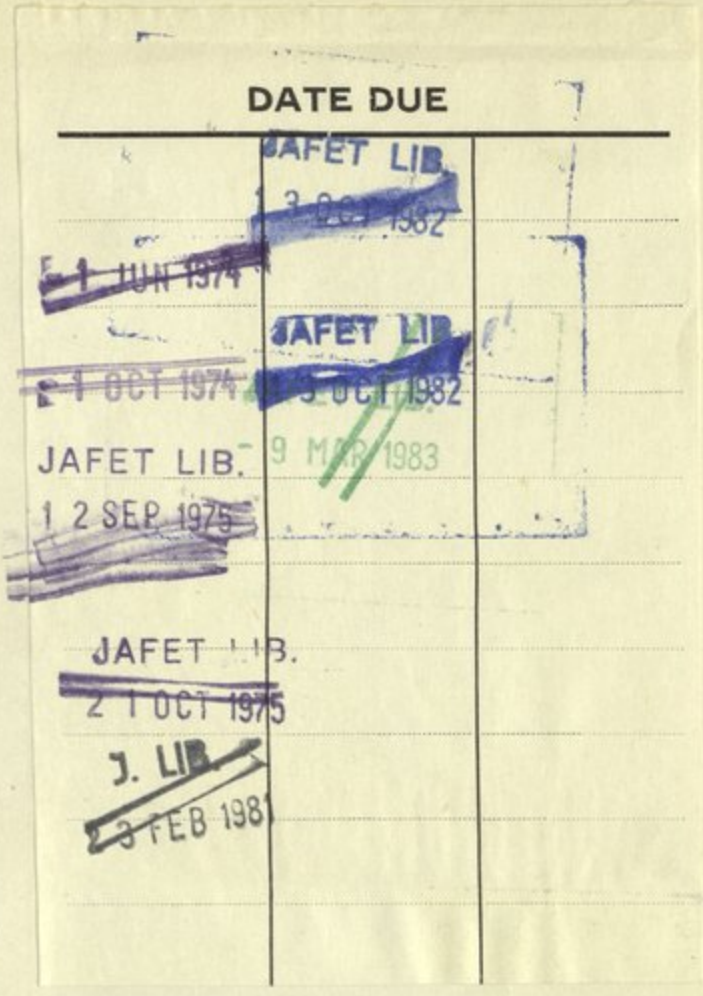
DATE DUE
JAFET LIB.
1 JUN 1974
JAFET LIB.
1 OCT 1974
JAFET LIB.
1 2 SEP 1975
JAFET LIB.
2 1 OCT 1975
J. LIB.
3 FEB 1981

[redacted]
ايوب ،فؤاد
حب وحرب
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01032143

[redacted]

رولان ، رومان .

حب و حرب

DATE	Borrower's Number	DATE	Borrower's Number
6. 6. 74	F-303		
28 AUG 75	74-1683		
17 OCT 75	74-1937		
10. 2. 81	77-1134		
30 SEP 82	79-1833		

[redacted]